

الفصل الثانی والعشرون

زعامة بيمونته

١٨٥٣ — ١٨٥١

وكانت المعاهدات التي عقدها كافور فاتحة نجاح باهر ظل يرافق ما قامت به بيمونته من أعمال حتى غدت بيمونته المملكة الصغيرة الباسلة ، البلد الذي توجهت إليه جميع الأنظار في أوروبا ، والحق أن دازجيلو شق طريق استجلاب عطف الرأي الأدبي العالمي فسار عليه كافور وقد رضى الديموقراطيون عن وقوف كافور موقف الخصم للنمسا . أما الأحرار والمعتدلون من المحافظين فاغتبطوا بالفشل الذي لاقاه الديموقراطيون وكذلك فرح البروتستان والجماعات المعارضة للاكيريكيين بقوانين ساكاردى . ولم تبق البلاد منعزلة كما كانت سنة ١٨٤٩ ، وكان دازجيلو قد نال ثقة الرأي الأوربي العام الأدبي بإخلاصه . فأبدى بالمرشئون تقديره الحار لموقف بيمونته ، وأخذ السياح الإنجليز ومن بينهم جلادستون الذين زاروا تلك المملكة يبشرون بارتقاء هذه الدولة المنظمة التي تختلف عن البلدان الإيطالية الأخرى ، وفي بيمونته

نفسها كاد شعور الفخار بالفوز الذى استحقته ينسى سوء أثر كارثة نوفاره . وقد أصدر جيورجى من محل ازوائه فى باريس كتابه المعنون (أحياء إيطاليا المدنية) شرح فيه آماله فى وجود بابويه مصلحة وبين أن زعامة إيطاليا انتقلت إلى ييمونته فأصبحت مهمتها إنقاذ الأمة بمساعدة فرنسا وجعل إيطاليا دولة موحدة عاصمتها روما .

وأخذت النخبة الممتازة من الأمة تتلهف على استئناف الحرب ضد النمسة حرباً لا تبقى فى يدها شبراً من الأرض فى جنوبى جبال الألبه واتجه جميع الأحرار على اختلاف مشاربهم بأبصارهم نحو الملك فيكتور عمانوئيل ليسير على رأسهم ولا سيما بعد أن أخذ نفوذه بين الشعب يتغلغل ويزداد ، وكان يقضى حياته الخاصة بين اللهو المادى والألعاب الرياضية فبينما كانت زوجته على قيد الحياة أسكن خليلته فى الحديقة الملكية ، ثم إنه كان رجلاً خشناً ولكن طيب القلب وكان شجاعاً لا يهاب الموت ، وبقدر ما كان يجيد الفروسية كان لا يحسن القيادة وكان يحمل فى جنبه حباً للديموقراطية وينتبط كثيراً بحجة الشعب على الرغم من أن —
مظاهراته كانت تتبعه وكان ظريف الروح يتصل بجميع الطبقات ينفر من المراسم ، وكان الجمهور فى إيطاليا يعتبره الأمير الدستورى والملك الشريف الذى لم يحث أمام الشعب ، والجندى الذى حارب النمسة ولن يتخلف عن محاربتها . وبذلك كسب إخلاص الشعب

له وولاءه وكان يكره النمسه ويتوق إلى حرب ينتقم بها لشرف أبيه
ويغسل عار نوافاره ومما زاده في سخطه عليها تديرها الدسائس مع
الرجعيين . وقد قرأ كتاب جيورجى وأشر عليه وصرح بعزمه
على أداء الرسالة التي ألقيت على عاتقه في الكتاب المذكور .

وقد اجتمعت الأحزاب ما عدا الرجعيين على التأهب لحرب
قادمة ، وكانت حوادث مقاطعة هس ومقاطعتي (شلويخ
وهلشتاين) في ألمانيا تنذر بنشوب حرب أوربية ، وأخذ
اليساريون يبشرون بمناهضة النمسه ويضاعفون ياكرايم اللاجئين
والترحيب بهم . وأطلقت الجريدة التي هي لسان حال فاليريو ،
العنان للوزارة واندفعت في تأييدها على أن تقوى الجيش
والأسطول ، وقام (باللافيجو) قبل ذلك بدعايه نشيطة لليمونية
وسط إيطاليا وجنوبها ، وكاد حزب اليمين يطالب بأكثر من ذلك
وأعاد الجنرال مارمورا تنظيم الجيش بحيث يستطيع أن يقذف بتسعين
ألفاً من الجند إلى الميدان ، وبينما كانت سياسة الإرهاب في لمبادريه
مستمرة بعد استقالة كارل شفار تسنبرج ، وبينما كانت النمسه تفقد
مكانتها في نظر الرأي العالم المتمدن في أوربا كانت ييمونته تعز
بقوتها ورقيا وتنظيمها ؛ ومع ذلك فقد كان المحافظون وقد يشترك
معهم في رأيهم آخرون كثيرون لا يعتقدون بأن ييمونته تستطيع
أن تقهر النمسه دون مساعدة ، وكانت سياسة دازجيلو الخارجية
تقوم على تأمين منزلة محترمة لليمونته في فرنسه وإنجلترا ولم يكن

ينتظر أن تساعد المجلته بيمونته بالسلاح ما لم تنشب حرب عامة في أوروبا .

ومهما كانت مودة بالمرستون لبيمونته عظيمة فإنه أصر على التمسك بسياسة السلم ؛ أما في فرنسا فكان الأمر على عكس ذلك وتفصيل الأمر أن القوة التي أوفدها نابليون إلى روما جلبت سحق الديمقراطيةين ولكن ساعده الكتاب الذي أرسله إلى الجنرال في قائد القوة على أن يحتفظ بمكانته في قلوب الطليان .

ولمب نابليون بعد ذلك عشرين سنة دوراً خطيراً في السياسة الإيطالية وقد أصاب في تقديره ما اكتسبته الفكرة القديمة في ذلك العهد من القوة الفعالية في السياسة الدولية ، واعتقد أن في مكنة فرنسا بصفتها حاملة علم القومية أن تضمن لأوروبا استقراراً دائماً وعهداً للسلم جديداً ، وكان يرى بأن إيطاليا الموحدة والمانيه الموحدة وبولونيه المستيقضة وتحرر السلاف في الامبراطورية النمساوية سوف تساعد أوروبا على أن تنصرف إلى الرق التجاري والتجارة الحرة وإلى تسوية القضايا الاجتماعية . وكانت قضية إيطاليا وبولونيه من أهم مواضيع أحلام نابليون في ذلك الحين ، وكانت إيطاليا أول من جلبت انتباهه ، وقد أدرك رجال بيمونته السياسيون ذلك وكانوا قد فكروا قبلاً في محالفة فرنسا حينما دخل كافور الوزارة ، وقد صبروا ريثما يصبح رئيس الوزارة قادراً على العمل . ولما نجح نابليون في ٢ كانون الأول — ١٨٥١ في

حمل فرنسا على المنادة به امبراطورا لفرنسه هاجمته جرأء تورينو
وجنوة لعمله المناق للستور ، فغضب لهذا الهجوم الناس بكرامته
وطلب إلى دازجليو أن يعدل قانون المطبوعات وأن يكفهم أفواه
اللاجئين ومع أن دازجليو رفض اتخاذ تدابير شديدة ضد اللاجئين
وتقييد حرية الانتقاد في الشؤون الداخلية فإنه أخذ يشعر بضرورة
التفاهم مع نابليون لأن النسبة كانت تهدد بالهجوم فضلا عن أن —
سقوط بالمرستون قضى على آخر أمل يرتجى من انكسارته وعليه
فإن إرضاء لنابليون نفى بعض الديمقراطيين المتطرفين وعرض على
المجلس قانوناً يتعلق بمعاينة من يقترب إثم الطعن بالملوك ، فارتاح
نابليون لهذه التدابير ووعد بمساعدة فرنسا عندما تحتاج إليها
بشرط أن تحافظ على الهدوء وأن تراقب الفرص .

وكان الانقلاب الحكومى فى فرنسا قد أدى إلى تطور ذى
شأن فى سياسة — ييمونته ، وأخذ المعتدلون وجماعات اليمين
واليسار يميلون إلى الاندماج فى حزب مركزى موحد ، وكانت
الاتفاقيات التجارية سببت خلافا وانفصالا بين أنصار حماية
التجارة وأنصار حريتها من حزب اليمين ، فأخذ العقلاء من الجانبين
يدركون خطر الأكترية المترججة التى تستطيع فى كل لحظة أن
تحدث أزمة وتنصب وزارة يرأسها ريفل ، وكانت الوزارة تعلم أن
ريفل نفسه قد يحترم الدستور لكنه يوجد فى جماعته أناس
لا يحترمونه ، وكان الاختلاف الموجود ضئيلا بين وسط حزب

اليمن ووسط حزب اليسار إذا قورن بوسعة بالاختلاف الذي يفرق جناحي حزب اليمن ، فذلك أصبح ممكناً تأليف حزب قوى متجانس يجمع بين الوسطين المذكورين ، وقد فرح كافور بالتقرب الذي بدأه بين الوزارة واليسار لأن الانقلاب الحكومي في باريس والخصومة الصريحة التي أبدتها بعض أنصار ريفل ضد الدستور قد أقنعتاه بضرورة الحصول على قوة ضد الرجعيين . وكان يشارك غيره شعور الاستياء المتزايد من رغبة دازجليو في التفاهم مع روما والنمسا ، بشمن فاحش جداً ، وكان يريد أن يخلق الفرص لا أن يترقبها كما هو شأن دازجليو ، وكان رتازى منذ مدة طويلة متشوقاً إلى اندماج الوسطين وما أن اقتنع كافور بصواب الفكرة الا وتم الاتفاق بينهما على الأساس . ولما عرض الوزير ديفورستا تعديل قانون المطبوعات على المجلس قرر رتازى أن يؤيد الحكومة بجماعة الوسط في حزبي اليسار وقرر كافور من جانبه أن يقطع علاقته تماماً مع أقصى اليمن وطلب إلى زملائه أن يسيروا معه في سياسة تقدمية ، وإذا علمنا أن الأمر تم باتفاق خصوصي عقد بين كافور ورتازى يتضلع لدينا جسارة كافور وجراته ، وهكذا تم إتحاد الحزبين الذي أعلنه أثناء المذاكرة حول قانون ديفورستا ، وكان من نتيجة هذا الاتحاد الجديد أن انتخب المجلس رتازى رئيساً له منافساً بذلك مرشح الحكومة وبعد أزمة استمرت مدة من الزمن استقال كافور وزميله فاريني من الوزارة في شهر أيار .

ولم ير كافور الوقت مساعداً لاستلامه الحكم فأخذ يتساهل مع دازجليو ليحول دون مجيء وزارة رجمية وليستغل صيت دازجليو في انجلترا لاكتساب عطفها ، وأخذت خصومة كافور تشتد بعد ذلك حتى سقطت وزارة بالمرستون فتخرج الموقف السياسي كثيراً ، وكان لا يزال يميل إلى التريث لو لم يحدث حادث فجأى نشأ عن موقف الملك بشأن قانون النكاح المدني إذ مر هذا القانون من المجلس النيابي بعد أن أقره لكن البابا عارضه معارضة شديدة على الرغم من أنه كان مرعياً في نفسه منذ مدة طويلة وفي فرنسا منذ عهد الثورة ، وحاول دازجليو عبثاً أن ينال موافقة البابا فأرسل الملك إلى البابا كتاباً يلتمس فيه تدليل الصعاب في وجه الموضوع فأجابه البابا بجواب قاسى اتهمه بأنه يروج التسرى إشارة إلى أن النكاح المدني لا يحل الزواج بين الزوجين فما كان من الملك إلا أن انحاز إلى جانب الكليريكين رغم أنه طالما ظهر بأفعاله احتقاره — للروابط الزوجية وأعلن بأن ضميره لا يطاوعه على إقرار القانون الأمر الذى شجع الأعيان على رفضه فقدم دازجليو على أثر ذلك استقالته في ٢٢ — تشرين الأول وانزوى في معمله ليكسب معيشته بريشته .

وكان كافور الخلف الطبيعي لدازجليو فاضطر الملك مكرهاً أن يكلفه بتأليف الوزارة مشروطاً عليه أن يتمهد بالاتفاق مع روما

ولما رفض كافور ذلك انتهز الملك الفرصة ودعا بالبو وريفل إلى
تقليد الحكم على أساس البرنامج الآتى :

« الدستور لا أكثر ولا أقل » ومعنى ذلك الاكتفاء بالحد
الأدنى من الإصلاحات والتساهل فيما هو مصلحة روما . إلا أن
وسط اليمين رفض معاضدة البو وريفل ومع أن الأول كان يمارض
كل تشريع ضد الاكثيوس فقد أبى أن يتساهل فى قضية
فرانسوى واعترف بإخفاقه فى تأليف وزارة دستورية ؛ فاضطر
الملك ثانية إلى الالتجاء إلى كافور بشرط أن لا يجعل قانون النكاح
المدنى مسألة ثقة ، وقد ظل أكثر أعضاء الوزارة المستقيلة أعضاء
فى الوزارة الجديدة التى سارت على أثر الوزارة السابقة فأهمل
قانون المدنى . أما السياسة الخارجية فلم يطرأ عليها أى تبدل ، وقد
أسرع كافور إلى تهنئة نابليون بمناسبة العيد السنوى للانقلاب
الحكومى الذى نودى فيه نابليون امبراطوراً .

وبرهن التقدم الهادى على رضا الشعب على الحكم الملكى
الدستورى فاعتادت الناس الحياة الدستورية حتى كأنها وليدة
أجيال مديدة مع أن ييمونته لم تظفر بها إلا حديثاً . وكذلك دل
فشل الرجعيين المستندين إلى نفوذ الكنيسة على قلة نفوذهم بين
الشعب وكان الجمهوريون أقل من أن يستطيعوا تأليف حزب ، ودلت
النشرات التى كانت تحمل على مازينى خصومة مازينى الرأى العام
له . وكان القسم الأعظم من الجمهوريين قد التجأ إلى باريس ولندن .

ومكث مازينى فى لندن مع فئة صغيرة من أصدقائه الخالص غير مستسلم للفشل وظل يحلم باليوم الذى يهب فيه الشعب من سباته فيسود فيه الحق .

وكان الكثير من أصحابه قد انفصلوا من حوله إلا عددا قليلا من الجمهوريين فى وسط إيطاليا وجنوبها ، وكانت كل مدينة تحتوى البعض من جمهورى سنة ١٨٤٨ ، وكانت جمعيات التعاون للعمل عبارة عن تشكيلات جمهورية وراء المظهر الاجتماعى ، وقد كانت هذه التشكيلات فى ريبة من حركة بيموته الدستورية شأنها فى ذلك شأن مازينى وكان لها فى لمبارديه بطبيعة الحال منبع الشعب رغم موت عدد كبير من زعمائها ونفيهم إذ لم يعتر الروح القومية الوهن ، وظلت الأبواب موصدة بوجه الضباط والموظفين النمساويين وكانت أقل إهانة يلحقها ضابط نمسوى للمباردى تؤدى للبراز ، مما أودى بحياة كثير من النمساويين والطلليان ، وقد مال كثير من أحرار لمبارديه إلى سياسة التريث إلا أن الأشراف الأحداث ظلوا متمسكين بأحرار بيموته وباللاجئين فى تورينو . وكانت جماعات من أصحاب الحرف وبعض الرهبان يعدون المؤامرات فيقمعها النمساويون فى شدة هائلة وقد نشطت التشكيلات السرية واتسعت حتى اتصلت ببلجنة مازينى المركزية فى لندن وأعدت فى سنتى ١٨٥٠ و ١٨٥١ مؤامرة قوية واسعة النطاق تستهدف القيام بثورة حين حدث الانقلاب الحكومى فى فرنسه إلا أن العقلاء

من أعضائها اعتقدوا بأن العصيان قد فات وأن الأنظار يجب أن تتجه نحو ييمونته ، ولكن السلطات النمساوية قد ارتابت من الأمر وقبضت على أحد المشتبه منهم وبعد جلد استمر ثلاثة أيام أجبر على الاعتراف بأسماء الزعماء فقبضت على الراهب تزولى فى مانتويه وأوقفت مائتى صانع وتاجر وأزلت بهم أفطع أنواع التعذيب للحصول على اعترافات أخرى ، ولما لم توفق إلى ذلك صلبت تزولى وأربعة آخرين فأغضب هذا الحادث المباردين وفكر البعض فى الانتقام من السلطات النمساوية بإحياء الأيام الخمسة ودعت جماعة من الصناع فى ميلانو مازينى لمساعدتها ، ولما شجعها على العمل تقرر أن تكون الثورة فى أحد الأعياد الدينية يشترك فى الاحتفال بها ، ولما لم تكن الظروف ملائمة فقد فشلت الحركة فى مهدها وفر الزعماء إلى الخارج وعدل جمهوريو جنوه عن مساعدتها فى اللحظة الأخيرة . وكذلك أخفقت الحركة فى الرومانى وفى روما وانتهز النمساويون الفرصة لإزالة الضربة القاضية على الأحرار فشنقوا أربعة وعشرين شخصاً من المتآمرين ، وأجلوا ستة آلاف من أهل تسينا كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساءً إلى خارج الحدود نكابة بسويسره لقبولها اللاجئين .

ولم يكف ذلك كله للتخفيف من غضب المارشال الشيخ زاديتسكن فقد كان يحق كل الحق على أشرف ميلانو الأحرار وقد التجأ أكثرهم منذ خمس سنوات إلى تورينو وجنوه فصار

يوجه المسؤولية على بيمونته ويتهمها بتحريض اللاجئين الأغنياء إليها لأنها آوتهم في بلادها وتشجعهم على المؤامرة ضد جارتها . وقد صدرت إرادة الامبراطورية بمصادرة أملاك جميع الذين تركوا البلاد لأسباب سياسية ، فجاء هذا العمل مخالفاً الحقوق التي أبدتها المعاهدات . لأن الأشراف كانوا قد تجنسوا بالجنسية البوننتية ، وقد كفلت المعاهدات صيانة أملاك البيمونتيين في لمبارديه وفينسيه ، مع العلم بأن كافور قد اتخذ أشد التدابير لمراعاة أحكام الاتفاق وأقام سياجاً من الجنود على طول الحدود ليحول دون تسرب المساعدة من جانب بيمونته إلى المتأمرين ، وقد صدر بصورة غير مشروعة بيان مازيني وطرد كريسبي وآخرين من جمهوريين من البلاد وعليه فإنه استدعى السفير البيمونتي من فينا وقدم احتجاجاً شديد اللهجة على مخالفة النمسه للاتفاقيات لو لم يمنعه دازجليو لقابل عمل النمسه بالمثل فصادر أملاك الرعايا النمسيين في بيمونته ، وقد عاضدت فرنسه وأنجلتره بيمونته في حملتها معاضدة قوية . وبذلك حكمت أوروبا على النمسه حكماً أدبياً وكان ذلك فوزاً باهراً لسياسة كافور . وظهر تأثيرها في المجلس النيابي حينما اقترح على لأئحة التضمينات الكبيرة لتعويض نخايا الإرادة الامبراطورية . أما الجدل الذي تلى الاحتجاج فيرهن على صعوبة بقاء بيمونته والنمسه متجاورتين مدة طويلة .

الفصل الثالث والعشرون

مؤتمر بابريس

١٨٥٣ - ١٨٥٦

كانت سنة ١٨٥٣ حافلة بالكوارث والبؤس إذ فتكت الهبضة بالنفوس وقضى المرض على الكروم وانتشرت الفاقة في جميع الأطراف بسبب رداءة المحصول والأزمة التجارية ، وأدت الضرائب الباهظة والدسائس الكليريكية إلى اضطرابات خطيرة في منطقة (آوسته) وهاجمت الجماهير في تورينو دار كافور وكادت تقضى على حياته . وعلى الرغم من أن الحكومة قد أصلحت شؤون المالية فإن الموزانات كانت لا تزال تحتوي قروضاً جديدة وضرائب جديدة ، ولم يمنع هذا أكثر البيموتيين من التمسك بالدستور كل التمسك ؛ ولما رفض مجلس الأعيان مشروع كافور بشأن تنظيم المصرف القومي قرر كافور استفتاء الأمة بإجراء انتخابات جديدة ، وقد جاءت الأكثرية في جانب الحكومة فأعيد انتخاب جميع أعضاء الوزارة . وكادت الواردات تزداد ثلاثة أضعافها ، أما الصادرات فزادت خمسين بالمائة ، فلذلك كانت الحكومة قوية في البلاد وفي البرلمان رغم الفاقة والضرائب ودسائس الرهبان المستمرة .

ودل دخول رتازى فى الوزارة على مقدار الثقة التى تتمتع بها الحكومة من حزب الوسط ، وقد أدت المسكنة التى نالتها الوزارة العظيمة إلى إقدامها على القيام بأعمال موفقة فى السياسة الداخلية والخارجية وإتخاذ البلاد من نير الكنيسة وتوثيق عرى التحالف مع فرنسا . وعرضت الحكومة فى أوائل سنة ١٨٥٥ مشروع الإصلاح الكليريكى الثالث الخطير الشأن ، وكانت قوانين سكاردى قد حالت دون تدخل الكنيسة فى وضع القوانين ، وكما مر معنا فإن قانون النكاح المدنى يستهدف منع كل تدخل كليريكى فى حياة الأسرة ، وقد استحسن الرأى العام تأجيل هذا المرسوم حينذاك إلا أنه ألح على أن تشرف الحكومة على واردات الكنيسة ، وحالما دخل رتازى الوزارة وعدت الحكومة بإلغاء الأديرة وبمشاطرة الكليريكية فى وارداتها وإلغاء الإعانات السنوية التى تدفعها الخزينة للكليريكوس ، وحسبنا فى إدراك أهمية ذلك أن نعلم أنه كان فى المملكة التى يبلغ عدد نفوسها خمسة ملايين (٦٠٤) أديرة وصومعة يقطنها (٨٥٠٠) شخص فلكل (٢١٤) نفساً من الأهالى إكليريكى واحد ؛ بينما الحال فى بلجيكة لكل (٥٠٠) شخص وفى النمسه لكل (٦١٥) شخص . وكان الذين يمطفون على الكليريكيين أو الذين يميلون إلى وجود (كنيسة حرة) مثل كافور يؤثرون ترك الكنيسة حرة التصرف فى أملاكها معتبرين تقسيم واردات الكليريكية من القضايا التى تخص

الكنيسة ، ومقابل هؤلاء هناك المطالبون بإصلاح الكنيسة
وخصوم الكليروس الذين يرتأون أن تقوم الحكومة بإدارة
أراضي الكليروس وأن يكون لها حق إلغاء الإدارة وتخفيض
عدد الأسقفيات ومقاسمة الكليروس وإرادته .

وعارض كافور بشدة سياسة من هذا النوع إذ كان يقول
بأن الكليروس الذي يعيش بأموال الحكومة من دون أن يكون
له عائلة وأملاك خاصة يغدو طائفة محرومة من الرابطة الاجتماعية التي
تربطها بباقي الهيئة الاجتماعية لا علاقة لها بتشكيلات الدولة ، وسوف
تظل خطراً على الدولة على أن كافور كان يدرك بأن البلاد تمتع
الكليروس حتى أنها لتفضل الخضوع إلى التمسك على أن
تخضع للرهبان . وظل البابا بيوس متمسكا بسياسته التي لا تعرف
التسامح واللين . وكان كافور يلجأ إلى مفاوضة روما آملاً الحصول
على موافقتها ولكن المفاوضات أسفرت عن رسالة بابوية عامة
شديدة اللهجة اتهمت المشروع بالإباحية وهددت بالحرمان الكنسي
فيما إذا نفذ . فأجاب دازجيلو بعنف أنه يعتبر تلك الرسالة العامة
خروجاً على الدولة . وكانت الحكومة قد نشرت لأئحة القانون
قبل مدة وجاوزت فيها حدود اقتراحات دازجيلو بإلغاء الجمعيات
الدينية والإدارة والمرببات الدينية التي تنفق — على الأنفس أو على
جماعات دينية . ولما عرضت اللائحة على المجلس النيابي أيدها
حزب الوسط واليسار وقبلت بأكثرية ساحقة .

أما الكليريكيون فكانوا يستندون إلى مجلس الأعيان وإلى الملك وأيقنوا أنهم سينجحون في تمثيل الدور الذي مثله في قضية قانون النكاح المدني . وقد تخاير الملك قبل ذلك مع روما مخبرة ودية مؤملا أن يصل إلى تفاهم ، وحدث في خلال هذه المخايرات أن أصيب بنكبة هائلة زادت في مخاوفه ، ذلك أنه فقد أمه وزوجه وولده في شهر واحد فسرعان ما استغل الكليريكيون هذا الحادث واعتبروه غضباً من الله . واقترح الأساقفة المعتدلون الذين بذلوا جهدهم في التأليف بين الحكومة ووردها أن يدفعوا من وارداتهم الكنسية مدة ما ، قدر الإعانة التي تدفعها الحكومة ، على أن تسحب الحكومة قانون اللغات ، ولما رأى كافور أن الملك يميل إلى هذا الرأي قدم استقالته ، فكلف الملك (دوراندو) وزير الحرية لتأليف الوزارة ولكن هياج الرأي العام بلغ الذروة حتى أن دوراندو أخفق في إيجاد زميل يؤزره في تحمل المسؤولية ، فأدرك الملك أنه سوف يفقد حظوته لدى الشعب وأن تورينو في حالة شغب خطيرة وأن تمادى الأزمة يؤدي إلى اضطراب وسفك الدماء ، وبناء على مشورة دازجيلو عاد فأناط رئاسة الوزراء بكافور . ولم يستطع كافور أن يحصل على موافقة مجلس الأعيان على القانون إلا بأكثرية ضعيفة ، وبعد تعديلات تكاد تستثنى نصف الأديرة الأمر الذي أسخط الرأي العام واعتبر هذا الحل تواطوءاً ، وكان كافور بين أمرين ، فإما أن يوافق على التعديلات وإما أن يسبب أزمة دستورية قد تهز العرش

وتهدر السياسة الخارجية . وكان كافور يرمى في سياسته الخارجية إلى جلب رضا فرنسه آملاً أنه قد يحين الوقت الذي تسوق فيه جيوشها عبر الألبه لطرد النمساويين من لمبارديه وفنيسييه ، وكان قائماً بأن ييمونته وحدها لا تستطيع أن تقتصر في حرب هجومية ، ومع ذلك كان يقدر عورة الطريق التي يريد أن يسلكها بالاعتماد على حليف طموح لا ضمير له ، على أن كافور لم يكن من الرجال الذين يحجمون عن استخدام الوسائل المريبة إذ لاح له بأنها توصله إلى الهدف المقصود ، وكان يؤثر سلوك الطرق السياسية على الالتجاء إلى الطرق الثورية . ونشبت الحرب الأوربية ضد روسيه فطورت الموقف إذ كان الحلفاء على أتم الأهبه لشراء أو استجداء أية مساعدة من أى جهة كانت وكانوا يرغبون أولاً في استمالة النمسه التي تستطيع أن تشل توغل الروس في البلقان ، وكانت النمسه تريد أن تبقى طليقة اليد لا تقيد بشيء ، وأخذت تساوم في مقترحات الحلفاء وحجتها في ذلك أنها إذا حشدت جيشها في الشرق فأن ييمونته تنهز الفرصة للهجوم على لمبارديه . وكان الحلفاء قد عرضوا صيانة الحدود الإيطالية طول مدة الحرب إلا أنهم رأوا أن أحسن جواب لمساومة النمسه هو أن يقنعوا ييمونته بالدخول في الحلف وإرسال قسم من جيشها إلى الشرق ، فأخذوا منذ أوائل سنة ١٨٥٤ يلاطفون حكومة تورينو ملوحين لها باستمرار بأنهم سيقنعون النمسه بالتخلي عن لمبارديه لقاء ممتلكات جديدة يعطونها

إياها في الشرق ، ولكنها إذا ترددت في الأمر فإنهم سوف يساعدون النمسا على احتلال الكسندرية . وكانت هناك حوافز للإصغاء إلى الدول الغربية أهم من كل ما مر ، فكافور أدرك بثاقب نظره أنه إذا أصبحت النمسا حليفة للحلفاء بدلا من ييمونته فستظل فرنسه وإنجلترا مدينتين لعدوتها ومستاءتين منها وهذا أصبحت سياسة كافور بأجمعها في الميزان ؛ فقبل مقترحات الحلفاء بلهفة وعرض عليهم إرسال قوة إلى القريم .

ومع أن الملك كان بجانبه فإنه لم يلق أى معاضدة لمشروعه هذا في الوزارة ، حتى أن وزيرين من وزرائه هدداه بالاستقالة ، وكانا يريان أنه من الطيش والمجازفة نهك قوى ييمونته وبذلك في نزاع ناشب بين الآخرين مع أنه يجب الاحتفاظ بها لتسخيرها في مطامعها القومية الخاصة ، وقد تريت كافور حتى استطاع في نهاية الحريف استمالة زملائه إلى رأيه ، ولما طلب الحلفاء في كانون الأول سنة ١٨٥٤ إلى ييمونته محالفهم بصورة رسمية قررت الحكومة تلبية الطلب مشرطة أن تمنحها إنجلترا قرضا لا يقل عن مليون جنيه استرليني ، وأن تعتبر ييمونته حليفة لا أحيرة فتشترك في جميع المؤتمرات المحتمل عقدها مدة الحرب وبعدها وأن تتمتع الدول الغربية في معاهدة سرية بأن تقدم بمسمى جديد لإلغاء عملية حجز الأملاك في لمباردية ، وأن تنظر بعين الجد في موقف إيطالية من حيث آمالها القومية . فلم تمل إنجلترا وفرنسه إلى قبول هذه

الشروط لأن النمسة قد انضمت إلى الحلف ورفضنا أن تسجلا في المعاهدة أى تعهد ، وبهذا أصبحت الوزارة أمام أمرين إما الحلف بلا قيد ولا شرط أو العزلة .

وكان الملك يؤثر انسحاب الوزارة على ترك الحلف كما طلب اللاجئون اللبازديون المدول عن الشرط المتعلق بالحجز على أملاكهم .

وبهذا وقعت الوزارة على المعاهدة في ٩ كانون الثاني ١٨٥٥ .
ودهش الرأي العام البيمونتي لذلك كل الدهشة ، وبدا له أن هذا المشروع جرى عجب إذ لا يكاد المرء يرى أية مصلحة للبلاد ؛ ولكن كافور بذل جهده وسخر ذكائه وحذاقته لحل المجلس النيابي في إقراره . وقد لقي كافور في ذلك صعوبة عظيمة فلم يستطع الناس أن يفهموا كيف يجوز لبيمونته أن تحارب روسية التي لم تحش مطامعها يوماً ما بينما ظلت بروسية محايدة والنمسة متفرجة فضلاً عن أن هذه الحركة تتطلب التضحيات في النفوس والأموال وتستدعي قروضاً باهظة سيحمل الناس عبأها على كاهلهم وسيكبدون ضرائب جديدة ، والأغرب من ذلك كله أن تقف ييمونته بجانب النمسة وتساعد مضطهدى السلاف الثائرين والواقع أن البلاد بأجمعها لم تشعر بخطر العزلة إلا قليلاً ، ولم تكثر لأهمية منح ييمونته صوتاً في المؤتمرات الأوربية ورفعها إلى مصاف خليفة الدول الغربية ، وجعلها المحامية عن قضية إيطالية مما تتضاءل معه

كل تضحية مهما كثرت ، وأخيراً أقر المجلس النيابي المعاهدة بخمسة وتسعين صوتاً ضد أربعين صوتاً .

وكان صيف سنة ١٨٥٥ دور قلق لبيمونتته فلم يصل أى خبر بالانتصار من القريم ، وكان كل فشل يؤدي حتماً إلى انتصار الاكاييريكين فى الداخل انتصاراً حازماً ، وقد مثلت القوة الصغيرة البيمونتية البالغة عدداً (١٧٠٠٠) دوراً سلبياً لا شأن له فى المعارك ولكنها أدت واجبها فى حماية جناح الحلفاء الأيمن كما يجب ، وتفوقت بخدمات ميرتها وشئون صحتها السيارة الجيدة فكانت على نقىض ما قد انتاب الميرة الانجليزية من فوضى .

ولما اشترك الجنود البيمونتيون فى القتال فى وادى جوناييا فى وسط آب ، وهنا يجب ألا ننسى أن الإفرنسيين هم الذين واجهوا صدمة القتال فإنهم أدوا واجبهم بكل بسالة حتى زعم كافور أنهم غسلوا عار نوفاره . وأخذ الناس يصدقون القول بأن (طريق القريم يوصل إلى لمباردية) وأن (فى خنادق القريم تبنى الوحدة الإيطالية) وأخذ الناس فى إيطالية يستبشرون باشتراك بيمونتته فى الحلف ويعتبرونه رصاصة فى مسدس انطلقت من أذن النمسة ، والواقع أن الظفر فى القريم خدم مصير إيطالية أكثر من جميع الخطب والمقاتلات التى دافعت عن قضيتها فى أوربا الصماء .

وكان كافور على حق حين طلب إلى الحلفاء بأن يهتموا بحالة إيطالية ، فلم يكن فى روما إلا الفساد والفوضى وليس فى لمباردية

والرومانى سوى استبداد عسكرى غاشم ، وساد الطغيان نابولى فى روما لم يؤبه لمجلس الدولة إلا قليلا ، وقد حاول المجلس المالى أن يدعم حقه الاسمى فى الإشراف على الميزانية بيد أن الحكومة أهملت أمره حتى أمسى بمرور السنين لا شأن له ولا قيمة ، وأصبحت الدعوى التى كثيراً ما تكررت بقبول العلمانيين فى جميع الوظائف حبراً على ورق ، فالعلمانيون لم يشغلوا إلا المناصب الثانوية ، وكان جميع الرؤساء فى الوزارات ماعدا الحربية وجميع الولاة وجميع كبار القضاة من رجال الدين . وكانت المجالس العمومية خاضعة لإرادة الحكومة كل الخضوع ، ولم يمنح حق الانتخاب إلا لأولئك الذين ساموا من الأخطاء السياسية والدينية . فاقصر التمتع بهذا الحق على جماعة صغيرة من أغنياء الملاكين .

ولم يكن الحكم الصالح فى نظر رجال الإدارة فى روما إلا من الأمور الثانوية ؛ فهم الكرادلة اقتصر على محاربة التفكير الحر والحيولة دون تقدم علم الطب . ناهيك ما كانت تقترفه محكمة التفتيش من مظالم ، وقد زج أحد الناس فى السجن لأنه لم ينزع قمعته فى الكنيسة ، وعذب أحد مواطنى فيرمو إلى حد الموت لأنه كفر . وبينما كان انتونللى والكردالة السياسيون يذرون الرماد فى عيون أوروبا أو أنهم يهددون فرنسا بالنمسة كانت عصاة السانفيديست المحمية من قبل الكرادلة تقبض على زمام الدولة . وقد أصبح (جاللى) يفضل الطريقة المخزية التى اتخذها فى

إدارة الخزينة ثرياً كما أرى انتونلى بطريقة غير مشروعة ، حتى اضطر إلى تقديم استقالته على أثر الفضيحة التي شاعت عن علاقته بمصرف روما وظل (البير) الرجل الذائع الصيت مراقباً أولاً لشئون الجمارك إلى أن اضطر إلى الهروب ليسلم من يد القضاء . أما شريكه ماردوني الذى حكم عليه فيما مضى ثبوت جرائم الغش والسرقاات عليه ، فكان يرأس الشرطة السرية ، وكانت المحاكم تتخذ جميع الوسائل لمطاردة الأحرار . وبلغ الاضطهاد حداً يصح القول معه أن أربعة آلاف من الأهلين كانوا فى السجون ، وزاد عدد الموقوفين السياسيين على ألف شخص كانوا كلهم فى حالة مزرية من حيث السكنى والمعيشة ، وكانت المحاكم النمسوية قد أعدمت منهم مائتين نفرأ رمية بالرصاص فى أبالة بولونية وحدها ، وكانت الحكومة لا تستطيع الاعتماد على جنودها ولا على شرطتها ، فالمعتدلون الذين اتخذوا كافور قدوتهم ، والجمهوريون الذين اتخذوا مازينى أملمهم كانوا يزعمون جماهير الأهلين كلهم ، وكان انتونلى يعلم جيداً أن القوات النمسوية وحدها هى التى تحمى حكومته من سقوط فجائى .

أما فى نابولى فقد قبض فرديناند على زمام الحكم بيد شديدة جداً ، وكان مغتبطاً بأنه الأمير الوحيد الذى يعلم السر الذى يستطيع به انقاذ الهيئة الاجتماعية الأوربية ، وأن الثورة لا تقمع إلا بيد من حديد وأن التساهل مع الأحرار ينتهى إلى الخضوع إليهم ، ولم

يأبه قط للرأى العام الأوربى الذى كان ينمته بالوحش عدو البشر .
وكان يعتبر انسحاب المرستون نصراً باهراً لقضية المحافظة على
نظام العالم الأدبى ، وكان يعتمد على عون قيصر روسيه وامبراطور
النمسه ولا يعبأ بفرنسه وانجلترا .

أما فى صقلية فبعد أن دشّن نائب الملك أعماله باضطهاد فظيع
أخذ يحاول استرضاء أهل الجزيرة بتخفيف وطأة الشدة وإصلاح
حالة الطرق التى كانت اقتصاديات الجزيرة فى أشد الحاجة إليها ، وقد
أغضب ذلك فرديناند فاضطر إلى الاستقالة ثانية وعين أحد صناعه
فى البلاط بدلاً عنه ، واشتد طغيان الملك حتى أخذ اليسوعيون
أنفسهم يتذمرون معه ويمقتون عليه . وكان الجوايس والشرطة
زبائنه وألآة فى هذا الإرهاق ، وأعد سجلات خاصة عن سلوك
الموظفين السياسيين ، ولما كانت الطبقة الوسطى هى العنصر الحى
فى البلاد ، فقد غدا إرهابها شغل الملك ؛ ولكن كان يوجه رعايته
للطبقات المنحطة وشبه المجرمة ويسخرها فى مآربه ، فكانت تعتمد
عليه وعلى شرطته لتعيش من دون عمل .

وكانت الأمور فى الشمال — شأنها فى كل وقت — فى حالة
لا بأس بها ، ذلك لأن النمسه أخذت على أثر الاحتجاجات التى
أقلقّت راحتها لمناسبة الحجز تخفف الوطأة عن الناس وكف
موظفيها عن المظالم الفظيعة وألغى قانون الأحكام العرفية ورفع
الحجز عن كثير من الأملاك ، وأعيد تأسيس الجمعيات المركزية

ولكن هذا كله لم يرق في أعين القوميين ، فكتب مائين من
انزوائه : « نحن لا نريد من النمسه أن تكون شقيقة بنا وذات
سياسة حرة في بلادنا لأن ذلك فوق قدرتها ، حتى إذا هي تمت ذلك
وإنما الذي نريده منها هو أن تذهب » . ولا يفوتنا القول بأن
صرامة الإدارة العسكرية قد منعت التجارة بخسارة فادحة وظلت
الشركات المساهمة مترددة خشية الأزمات السياسية المحتملة
الوقوع دائماً ، وبلغ ما أنفق على الإدارة النمسوية من الضرائب
غير الاعتيادية والقروض ثلثمائة مليون من الليرات خلال السنوات
العشرة التي تلت سنة ١٨٤٩ ؛ ومع ذلك فإن الحالة هناك كانت
أحسن مما هي عليه في روما و نابولي . وكادت هذه السياسة
التخديرية التي روعيت نكاية بالأحرار أن تخدر البلاد فعلاً وتبسط
عليها ظلاماً من الاستسلام الكئيب . وقد استحوذ على الناس
شعور عام من السكابة والتعب ، فأرسل مازيني في إيلول سنة
١٨٥٤ كالفي الشجاع البطل الذي دافع عن مضائق كادورة في سنة
١٨٤٨ لإيقاد نار الثورة في المنطقة نفسها ، إلا أنه قبض عليه
وصلب ، فكان لهذا الحادث تأثير تثبيط في عزائم الوطنيين ،
وطلب بعض اللاجئين الذين لم يحتملوا النفي المديد العودة إلى بلادهم
فسمح لهم بالعودة وأعيدت إليهم أملاكهم المحجوزة ، بيد أن هذا
الخنوع كان سلبياً ظاهرياً ، إذ كان يخفي بطياته حقداً دفيناً على
النمسيين أشد فعلاً وأكثر شمولاً من سنة ١٨٤٠ . وتفاهمت

الجماعات القومية في ميلانو بعد فشل ثورة ١٨٥٣ وأخذت تجد في الاستعداد ليوم الخلاص .

وبينما كانت لمباردية تنتظر اليوم الموعود كانت الدوقيات المجاورة لها ترزح تحت إرهاب شديد ومات شارل الثالث قتيلاً بطعنة خنجر خلفته الأميرة الوصية وهذه بدأت عهداً بالوعد بالإصلاحات ، ولكن ما كاد يشيع الخبر الطائش بأن غار بيالدي قادم ، حتى شبت الثورة في العاصمة بارمة . أما دوق مودينو فرانسوا فكان في جدال مستمر مع الحجارين في كرامة الذين غضبوا أشد الغضب بانسلاخ أرضهم عن حكم طوسكانة العطوف ؛ ورغم أعمال الشدة التي قام بها فرانسوا وضباطه النمسيون فقد ظلت كرامة وكر الاستياء والتذمر ، ومثلت في الحركة دوراً خطيراً .

تلك هي حالة إيطاليا التي أراد كافور أن يحكّم أوروبا في قضيتها وقد زار الملك فيكتور عمانوئيل ملوك الحلفاء بعد سقوط سواستبول في أيديهم الحلفاء ، فاحتفلت انكلترة بمقدمه واعتبرته دعاية الإصلاح الجديد في إيطاليا ، وقد دل ذلك الاحتفال على أن سياسته الرشيدة كانت موضوع عطف الإنجليز ورضائهم . أما في باريس فقد كان أثر هذه السياسة بالغاً حتى أن الامبراطور وقد أعجب بكافور تساءل ماذا يستطيع أن يعمل في سبيل بيمونته وإيطاليا ؟ ولكن حدث أن دخلت القضية الشرقية في دور غير ملائم ؛ فبيمونته كانت

تنظر إلى استمرار الحرب بعين الارتياح للحصول على أكاليل ظفر الجديدة وربط الحلفاء بتعهدات جديدة لمصلحتها ، ولكن السياسة النمسية الماهرة استطاعت في باريس أن تنفر فرنسا من الحرب وأن تحمل الامبراطور نابليون الثالث على أن يسلك سياسة سلمية ، وأدى ذلك إلى عقد مؤتمر باريس الذي قد ينتهي إلى إقرار السلم ، وذلك نصر باهر لسياستها ، وقد غدت النمسة في ذلك الحين سيدة الموقف ، وأظهرت فرنسا استعدادها للسير وراءها ، فأدرك كافور مدى الخطر الذي ينتج عن استعادة النمسة منزلتها التي فقدتها أخيراً ، فبذلك تذهب التضحيات التي تكبدتها بيمونته هدرأ ، وليس من علاج لذلك إلا أن يدوى صوت بلاده في المؤتمر . وقد بذل كافور طول سنة ١٨٥٥ جهداً جباراً لمكافحة الدسائس النمسية التي كانت تسعى لإبعاد بيمونته عن مؤتمر باريس مستغلة رغبة فرنسا وأنجلترا العظيمة في الحصول على مساعدة مسلحة من جانب النمسة . وقد أصرت أخيراً على أن يقتصر اشتراك المفاوضين البيمونتيين على القضايا التي تخص بلادهم فقط ، وأبى كافور أن تكون بيمونته في مركز ثانوى . وما كانت الدول العظيمة لتستطيع أن تنكر وجه الحق في مطالبه ، وعلى كل فقد ذهب إلى باريس وهو قليل الأمل في النجاح ، وناضل هناك وما كاد المؤتمر يفتح جلساته حتى وافق بالاجماع على أن يشترك كافور في جميع محادثاته . وكانت أهداف كافور المهمة أربعة :

أولاً — الحصول جهد المستطاع على أراضى ييمونته ؟
ثانياً — إخراج النمساويين من الرومانى ومنح هذه الدولة
استقلالاً ذاتياً ؟

ثالثاً — استغلال رأى العام الأوروبى لحل البلبا وفرديناند
على القيام بيمض الإصلاحات ؟

رابعاً — إظهار ييمونته فى جميع المواقف بعظهر المكافح عن
إيطاليه جميعها أو الأخرى حمل الدول على اعتبار ييمونته ممثلة
إيطاليه وزعيمة حركتها .

وكان يتوقف بلوغ هذه الأهداف قبل كل شىء على معاضدة
فرنسه وإنجلترا لها .

وكان بالمرستون يعطف على الآمال الإيطالية كل العطف شأنه
فى كل حين ، وقد قابل الأحرار الطليمان عودته للحكم فى نهاية ١٨٥٢
بحماسة شديدة وكان كرهه للنمسه وصلته بلويس نابليون ورغبته
فى شمول الحكم الدستورى جميع أنحاء القارة ذلك كله أوشك أن
يحفضه على إغارة قوة إنجلترا المسلحة لييمونته ، ولكنه لم يكن
طليق اليد والبلاط الأنجليزى كان يضع العراقيل أمام سياسته
الجريئة فضلاً عن أنه لم يكن وزيراً للخارجية فأنه يعلم أن بلاده لم
توافق على خوض غمار حرب ضد النمسه فى سبيل حرية إيطاليا
وذلك لا يمنع كون رأى العام الأنجليزى قد رفع صوته عالياً
بتشويق من جمعية محبى إيطاليا فى استنكار الاستبداد الجارى فى

روما و نابولي ؛ حتى أن هـدسن السفير البريطانى فى تورينو كان يستخدم نفوذه الواسع فى مصلحة الحكومة البيمونتية ، وقد قررت الحكومة الإنجليزية أن تضغط على فرديناند والبابا باذلة فى ذلك كل نفوذها .

أما عطف فرنسه على القضية الإيطالية فلم يكن أقل من عطف الإنجليز وقد وضع الامبراطور منذ مدة طويلة نصب عينيه إقصاء النمسيين عن إيطاليا ، ومنذ حدوث الانقلاب الحكومى الذى أصعده إلى منصة الإمبراطورية توقع حلول اليوم الذى يزحف فيه جيشه نحو بيمونته ، ولكن الحرب فى الشرق جعلت التحالف مع النمسة فى ذلك الحين أمراً لا بد منه ، بيد أنه فى إبان حروب القريم هدد النمسه وبروسية بسحب قواته وإرسالها إلى نهر الراين ونهر بو فيا إذا تخلتا عنه ، وحين كانت سياسته ترمى إلى مصادقة النمسة كان يأمل أن يقنعها بسحب قواتها من الرومان وترك بارمه لبيمونته حتى بلغ به التفاؤل أن ظن بأنها توافق على التخلي عن ممتلكاتها الإيطالية لقاء حصولها على الإمارات الدانوبية . ثم إنه كان لا يريد أن يقوم بعمل يفضب البابا اجتناباً لخصومة الكاتوليك الفرنسين ، إلا أنه كان يمتق فرديناند ويندد بأعماله الاستبدادية . حتى أنه ساهم فى الدسائس التى حيكت لنصب ابن عمته لوسيان مورات ملكاً على نابولي .

لقد علق كافور في مفتتح عهد المؤتمر آمالاً كبيرة على ماقيه من تشجيع الامبراطور. والمندوبين الانجليز في المؤتمر وأمل أن يضم بارمه أو ماسة كرامة إلى ييمونته ، وأن يرى الروماني دولة مستقلة ، وملحقة بطوسكانه أو بندقية بارمه . وحين أدرك أن تصلب النمسة العنيد سوف يقضى على مشاريعه اضطر إلى تعديل سياسته ، فقدم مذكرة إلى السفير الفرنسى والانجليزى اقترح فيها منح مقاطعتى الروماني والمارك حكماً ذاتياً تحت سيادة البابا على أن تتمتعاً بنوع من التمثيل الدستورى وكان موقفاً أن النمسة لا توافق على هذا المقترح فيتخذ من رفضها حجة يستغلها ضدها لمصلحة القضية الإيطالية من جهة ، وليعلن من جهة أخرى للملأ استحالة قيام حكومة البابا بأية إصلاحات ، وقد وعده السفير الانجليزى والفرنسى بأن يهيئ فرصة للبحث فى القضية الإيطالية بعدما يبت المؤتمر فى القضايا المهمة ، وكانت بروسية تقف من القضية موقف العطف ، أما روسيا فكانت تريد الانتقام من النمسة . وقبل أن ينفض المؤتمر عرض المفاوض الفرنسى عليه قضية روما و نابولى وانتقد الحال فيهما باعتدال ثم عقبه المفاوض الانجليزى بتوجيه التهم لحكومة البابا والتنديد باستبداد فرديناند طالباً تدخل العالم المتمدن ، واصر المفاوض النمسى على رفضه الموافقة على البحث فى هذه القضية رفضاً باتاً حال دون الحصول على أى نتيجة .

ولكن كافور نال مبتغاه إذ تأكد أن أكثرية المؤتمر تعطف على القضية عطفاً صادقاً وأنه ظفر بنقمة أوربا على الاستبداد . ثم إنه لم يترك الفرصة تمر سدى بل قدم توأماً مذكّرة إلى السفيرين الفرنسى والإنجليزى عقب إرفضاض المؤتمر أوضح فيها وضع النمسة المسيطر فى إيطاليا وصعوبة الاحتفاظ بالسلم تجاه تحريكاتها ، وكانت النقطة المهمة فى تلك المذكرة كما قال مازينى لفتت نظر العالم إلى أنه إذا فشلت الأساليب الدبلوماسية فى الحصول على الإصلاحات فإن الأساليب الثورية هى الكفيلة بالحصول عليها ، والواقع أن كافور أخذ يفكر فى الحرب تفكيراً جدياً بعد أن شاهد إخفاق مساعيهِ السياسية وراح يتهدد بالتحريض على الثورة فى نابولى وباليرمه وإشهار حرب السكاكين على النمسة فيما إذا أخفق فى الوصول إلى حل سلمى ، والواقع أنه لن يتأخر فى زج بيمونته فى الحرب فيما لو اقتنع أن الظروف ملائمة حينذاك ، وبعد أن أطلع المفاوض الإنجليزى على المذكرة قال لكافور بعض كلمات اعتبر كافور خطأ أنها وعد بالمساعدة من جانب إنجلترة مما جعله يتحفز لحوض غمار الحرب ولكن إنجلترة عادت إلى صداقتها التقليدية مع النمسة ولم ترغب فى تقويض دعائم تلك الصداقة ، كما أن فرنسه لم توافق على إغضاب البابا وعليه فإن المؤتمر لم يسفر عن فائدة عملية لقضية إيطاليا ، فهاجته المعارضة فى بيمونته ونددت بالنفقات الباهظة التى ذهبت سدى وتحديثت عن الآمال الخائبة ولكن الواقع أن الربح

المعنوى كان عظيماً ، اعترفت به إيطاليا بأجمعها إذ حلت القضية الإيطالية من الآن فصاعداً في المقام اللائق بها من الاهتمام والعناية .
وأما النمسة فقد فقدت منزلتها بالدور المخزى الذي مثلته في حرب القريم وبالدفاع التافه الذي قدمته للمؤتمر حول القضية الإيطالية وكان كافور محقاً حين صرح أمام المجلس النيابي ، « بأن النمسة أصبحت أمام محكمة الرأي العام » ، وأن أوروبا قد اعتبرت يمينته محامية عن القضية المذكورة ، ولما طالبت إحدى صحف تورينو بجمع إعانات لتجهيز قلعة الكسندرية بمائة مدفع تدفقت التبرعات من جميع أنحاء إيطاليا ومن جميع الطليان في أنحاء العالم .

الفصل الرابع والعشرون

الجمعية القومية

١٨٥٥ — ١٨٥٧

لا شك في أن كافور نال مبتغاه في مؤتمر باريس ، فقد كسب جانب فرنسه ؛ ومهما كان التدخل الذي أقدمت على القيام به فرنسه وإنجلترا للضغط على روما و نابولي طفيفاً فإن ذلك من صنعه ، وكان يعلم جيداً أن جيش لويس نابليون سوف يعبر جبال الألبه عاجلاً أو آجلاً لطرد النمساويين ، وكان الرأي العام قد قدر نجاح كافور في المؤتمر ، وازداد نفوذه حين صار دكتاتوراً في بيمونته ، وغدت الأكثرية في المجلس النيابي بيده ، أما مجلس الأعيان فخفض له بعد أن هدده بإحداث كراسي جديدة فيه . هكذا أصبح كافور في جميع أنحاء إيطاليا رمز الإنقاذ العاجل وكان منهجه والحالة هذه لا يحمس النفوس لتجتمع الكلمة حوله . وحين كان المؤتمر يعقد جلساته تألف في إيطاليا حزب جديد لتأييد سياسة كافور وتنشيطها وانتزاع القيادة الممنوية من أيدي الجمهوريين وتسليمها لحزب الأحرار الكثير العدد الذي نادى بكافور رئيساً .

وكانت ثروة ميلانو المشؤومة سنة ١٨٥٣ ضربة قاضية على

نفوذ مازنى وقد قضى على سمعة جمهورية روما . أما فى فرنسا فإن الانقلاب الذى قام به نوبس نابليون أدى إلى تشتت شمل الجمهوريين وكذلك أخذ أنصار مازينى فى روما و نابولى ولباردية يلتحقون زرافات بالقوميين الذين ساروا وراء فكتور عمانوئيل وكافور ، وكان سقوط مازينى ذا مغزى يفوق مغزى سقوط الحزب الجمهورى اذ به ينتهى الدور الذى بلغ سماكه فيما بين السنوات ١٨٤٦ — ١٨٤٩ ، وبدأ للعيان أن الحماسة التى لا تستند إلى القوة تعجز عن مقاومة حراب الجيوش الدائمة على أن القضية لم تقترب من النجاح إلا يوم عاضدها قوى فعالة أعنى الجيش البيمونتى والسياسة البيمونتنية ، أما الحماسة المحرومة من الضغط والآراء السياسية المتبسرة فقد فشلت . وكان شعار السياسة الجديدة الحصول على أكثر شئ ممكن بأقل جهد وتضحية ، وهكذا حلت نزعة كافور الحرة محل نظريات ميمانى ومونتالبلى وبروفيريو الاجتماعية ، وكانت حركة مازينى وجيوبرتى قد سارت مدعومة بتقديس الكنيسة . فحمل متطوعوها الصليب فوق صدورهم وكانوا يتضرعون إلى الله لنيل مقاصدهم .

أما الجيل الجديد فأخذ يهتم كثيراً بمخزن العتاد وكان للأولين شعراؤهم ومؤلفاتهم — الأدبية المهمة ، وكانوا يرجعون إلى التاريخ أما الآخرون فصاروا يكتبون الرسائل — ويوزعون النشرات ويتكلمون بلسان الصحافة التى ارتفعت منزلتها بعد سنة ١٨٤٧

فصمت المفكران انوديمان توماسيو وباتسي وثابت النظرية العقلية Rationalisme مناب المثالية idéalisme ، وأخذت الروح الجديدة تهتم بالخال أكثر من اهتمامها بالمستقبل وتجنبت الإفراط في آمالها وسلكت سبيل الحذر والتربص عازمة على ألا تجازف على الطريقة الدون كيخوته منصرفه للاستعداد لا تنزل إلى المعركة إلا بعد أن تضمن النجاح . وجعلت الحركة الجديدة كل اعتمادها على الضبط والنظام وأعرضت في سبيل المحافظة على الوحدة عن المعاصرات المفاجئة والاعتداء على الخصوم وسحق الأقلية ، وصرفت همها إلى إزالة كل ما يسبب الخلاف حتى لا يقع مثل الانشقاق بين الملكيين والجمهوريين الذي شل حركة لباردية صيف سنة ١٨٤٨ ، وكذلك إزالة الشكوك التي جعلت المحافظين يكادون يغتبطون بهزيمة نوفاره وقد تمتشت الحركة على أن ملك ييمونته هو الزعيم الوحيد ، وأن دستور ييمونته هو النموذج الذي يجب أن تحاكيه دساتير إيطالية وأن جيش ييمونته هو الأداة الوحيدة للخلاص .

وكان جيورتي إلى حد ما رئيس دعاة هذا المذهب الجديد وكما أن كتابة بمرماتو كان قد أوجد جماعة الجلفي الجديد ، فكذلك كان كتابة (البعث المدني) إنجيل جماعة الوحدة الجديدة ، ولما مات جيورتي سنة ١٨٥٢ انتقل تراثه إلى يد رجلين ممتازين : الأول (جيور جيوبالافنجينو) من أهل لبارديه وقد قضى هذا في سجن شيليرج زهاء ١٤ سنة وعاد إلى ييمونته من جملة اللبارديين

اللاجئين سنة ١٨٤٨ ، وكان من المؤمنين بالجمهورية بيد أن اختلاطه للملكين واتصاله الشخصي بالملك سرعان ما جعلاه من الملكيين ومع ذلك فقد ظل راديكاليا متحمساً جم النشاط واسع الطموح إلا أنه قليل الكفاية في السياسة ، وكان يميل إلى حمية غاريبا لدى النزيهة ولا يثق بسياسة كافور الكثيرة الحذر ، وثانيهما مانين وكان قد التجأ إلى باريس بعد سقوط البندقية واكتسب بنزاهته وإخلاصه ونبل سيرته احترام جميع اللاجئين ، وكان متخلقاً بالصفات التي يندر أن يتخلق بها رجال الدولة ، وبينما كان كافور يقنع الناس بالعقل والمنطق كان مانين يمس قلوبهم ، وكما فعله زميله باللاجئين ترك مانين الآراء الجمهورية وأدرك أن لإيطاليا قوتين أساسيتين هما — الرأي العام والجيش — البيمونتي ، ولا كتساب القوة الثمانية يجب تنظيم القوة الأولى واستخدامها في حمل فكتور عمانوئيل على أن يترأس الحركة القومية وهكذا ، فإن مانين كان يتوخى تثبيت الشعور القومي الذي يشتد ميلاً نحو بيمونته ، واصبح يتتبع باهتمام تطورها الدستوري وجهادها ضد البابوية ويصفق استحساناً لها حين احتجت على حجز أملاك المباردين من قبل النمسة مغتبطاً بتحالفها مع الدول المعظمة على الرغم من إخفاقها في تحقيق الآمال ، وظل يعتبر أن بيمونته هي بطل إيطاليا المجاهد التي قدر لها أن تحتضن سياسة الإنقاذ القومي ، وكان لا فارينا المؤرخ وزير صقليه السابق هو القائم بالدعاية لهذا المذهب .

وكان لا فارينا رجلا نزيهاً نشيطاً مجتهداً كادحاً هادئاً يقبل على العمل بكلية ، وقد ظل ثلاث سنوات يكتب بيده كل المراسلات الخاصة بالجمعية التي مثلت المذهب الجديد ، وقد أسس أولئك الذين ذكرت أسماءهم الجمعية القومية غير متأثرين بنفوذ رجال السياسة والصحافة ، وكان شعارهم : « الاستقلال والوحدة وطردهم النساء والبابا معاً » ، وكانت هذه أول جمعية أسسها رجال غير ثوريين ، فكانوا على خلاف أنصار مازيني الذين كانوا يفضلون الجمهورية على إيطاليا وعلى خلاف البونتين الأقحاح الذين يضحون في إيطاليا في سبيل تورينو ، وقد عاهدوا أنفسهم على أن يظلوا مخلصين لآل صافوية شريطة أن يعتنق الملك سياسة الوحدة ، أما إذا تردد فقد هددوه برفع علم آخر ، وقد كتب مانين للملك يقول له : « كَوْن إيطاليا الموحدة ، فنحن رجالك ، وإلا فلا » ، ولما تأكدوا من من تعلق الملك بقضيتهم التفتوا حوله ناشطين ، فأصبح شعارهم الوحيد « الوحدة والاستقلال » ، فيكتور عفا نؤيل ملك إيطاليا « وكان الطليان يرغبون في الوحدة ، ومن العدل والإنصاف أن ينالوها : ولكن خصوم الوحدة كانوا يدعون بأن الاتحاد لا الوحدة هو الذي يقود الأمة إلى الانتعاش الاقتصادي والرقى الاجتماعى الحقيقى ، وبه تروى الحواجز الجمركية وتتوحد العملة والموازين والمقاييس وهو يساعد على وضع قوانين عامة ، وقد يؤدى إلى الأخذ بسياسة خارجية وعسكرية موحدة ويجمل العلاقات بين الدويلات أكثر

نشاطاً ويكون نوعاً من الوحدة الأدبية ، أما الوحدة فكانت بنظرهم عملاً يتعذر تحقيقه ، أن توحيد الدول الملكية القديمة لا يتم إلا إذا بلغ أعضاء الاتحاد من القوة ما يستطيع بها أن يعلو سياسته على جميع أعضاء الاتحاد ، ولو فرضنا أن يموته قد استولت على إيطاليا الشمالية كلها فلم يكن لها من التفوق ما يكفي للتغلب على نابولي . أضف إلى ذلك مشكلة سلطة البابا الزمنية الخاصة وكونها عقبة دون الوحدة ، وفضلاً عن ذلك كله للفروق الموجودة بين الشمال والجنوب محاذيرها وأثرها ، بيد أنه فات هؤلاء الاتحاديين أن تركز القوى بيد دولة تحكم إيطاليا جميعها والنخوة الوطنية التي تجمع كافة الطليان في صعيد واحد ، أضف إلى ذلك اتساع نطاق العمل لدولة عظيمة تضاهي دول أوروبا الغربية ، كل ذلك أمور لا شك في أنها تتفوق على رخاء شحيح في بلاد صغيرة . وكان مانين مقتنعاً بأن الجمهوريين سوف ينضمون إلى معسكره الجديد . والواقع أنهم أخذوا ينشقون عن مازيني ويتخلون عن سياستهم الخاصة ويلتحقون بمعسكر مانين أفواجاً . وظل مانين يأمل بأنه يقنع مازيني بالانضمام إليه ولكن جل ما حصل عليه من مازيني هو وعده بأن يقف موقف الحياد وأن يتجنب كل ما من شأنه أن يعرقل سير العمل للاستقلال والوحدة ، على أن يترك تقدير شكل الحكومة القادمة إلى المجلس بعد أن تنال حريتها . وكان مازيني لا يشق بالملك — إلا قليلاً ، ومع

ذلك فقد اقتنع الآن بأنه لا يطرد النمساويين إلا الجيش البيمونتي .
وقد خيل له بأن بيمونته لن تتحرك مالم تجبرها على ذلك
حركة خارجية ، فإذا ما بدأت الثورة في نابولي وفي صقلية أو في
كراره اضطر فيكتور عما نوئيل وجيشه إلى التدخل لمساعدتها ،
غير أن مانين وباللافيجينو عارضا هذا الموقف الحيادي خشية أن
يتخذ أنصار الحكم الذاتي وأنصار موارث في نابولي ودعاة
الانفصال في صقلية والقائلون بالجمهورية في جنوة ستاراً ، ومعنى
ذلك الانشقاق الذي حدث سنة ١٨٤٨ ونجاح حركة الاتحاد دون
الوحدة . فضلا عن أن فيكتور عما نوئيل وحكومته لن يجبذا منهجاً
من شأنه أن ينحيزهما عن الميدان بعد انتهاء العمل . ولكن مازيني
بينما كان يميل إلى التفاهم من جهة كان يجهر من جهة أخرى بعدم
ثقتهم بالملك وباقتناعه بأنه لا يصلح لإيطاليه إلا الجمهورية ، وقد اشتد
الخلاف بين مانين ومازيني حتى أصبح هذا الأخير عدواً لدوداً
للجمعية القومية . وحين فتح باب الاكتتاب لشراء مدافع
للكسندرية سارع مازيني إلى فتح اكتتاب لشراء عشرة آلاف
بندقيه « تخصيص لأول أيا له إيطاليه تمور ضد العدو المشترك » .
وشرعت الجمعية القومية بالقيام بدعاية متقنة ، ولما كان الحزب
البيمونتي قوياً في شمال إيطاليه فإنه أخذ يوطد قدمه في الأنحاء
الأخرى ، وقد استطاعت الجمعية أن تجذب إليها جميع الناس في
لمبارديه وفنيسيه وفي الدوقيات ؛ أما في طوسكانه فظل أنصار

الحكم الذاتى من الأحرار أقوياء ؛ ولكن نفوذهم أخذ يتضاءل أمام دعاية الجمعية القومية ثم انحاز معظم أنصار مازينى إلى جانب الجمعية وشرع الشبان من أهل طوسكانه ينخرطون فى سلك جيش بيمونته وأخذ ريكاسولى يبشر بالثورة وبالوحدة . وقد رسخت الجمعية أقدامها فى الرومانى وفى روما نفسها وانحاز معظم أنصار مازينى إلى صفوفها . وكان نفوذ الجمعية فى نابولى وكلبريه وفى لابسيلكانه عظيما بفضل مساعى الحزب البيمونتى فيها وجمعية الوحدة الإيطالية أما فى بيمونته التى كانت مطمح الآمال ، فلم تتقدم الفكرة الجديدة فيها بآدى ، الأمر إلا قليلا ، وكانت الجمعية القومية قد استهدفت فى منهاجها الملكية تتعدى حدود إيطاليا الشمالية ، ولا تريد أن تختار تورينو ولا ميلانو قاعدة للحكم ، بل ترغب فى أن تجعل فلورنسه أو روما عاصمة إيطاليا المتحدة . واتخذت الجرائد ماعدا واحدة منها خطة الحذر من الجمعية وأظهرت حكومة بيمونته نفسها تردداً تجاه (المنهج العظيم الشأن) وعادت سياسة كافور ، بعد أن خفت الهياج الذى أحدثه المؤتمر ، كما كانت سياسة تقديمية حذره ، وظل هدفه فى هذه السياسة ترقب الفرص للظفر بمخالفة فرنسه مهما كلف الأمر وتجنب جهده كل عمل ثورى ، قانناً بمراقبة الأمور وسحق الجمهوريين واستغلال الحركة القومية لمصلحة الملكية وحث الآخرين على السير بالحركة إلى الأمام وعدم السير وراءهم إلا فى حالة نجاحهم . وقد رفض كافور أن يتنزل عن آرائه

في النقاط الجوهرية التي كان على خلاف مع البابا بشأنها ، رغم رغبة الملك في المهادنة معه ، واستعد لمساجلة طوسكانة وبارمه الخصومة وكان يميل إلى إعادة العلاقات السياسية مع النمسة إذا بادرت النمسة إلى طلب ذلك ؛ بيد أنه كان يحذر كثيراً ساولك سياسة تتعارض ومشاريع الإمبراطور نابليون ثم انجحت ميوله نحو السير إلى الإمام بخطى واسعة وأقدام إذا سمحت الظروف بذلك حتى أنه قال لغارينا في تلك السنة : « إنه يؤمن بأن إيطالية سوف تصبح دولة موحدة عاصمتها روما » . وقد تظاهر يميله إلى الجمعية القومية لا لأنه كان يعتبرها راسطة مكافحة للآراء الجمهورية فقط ، بل لأنها احتملت تبعه السير على نهج جرى ، وإذا استطاعت الجمعية القومية أن تكون في إيطالية قوة تساعد على الاستغناء عن الإمبراطور وتقود الثورة على ألامس العرش ، فإن ذلك هو ما يرجوه وينشده وكان يتربح الحوادث ويقول : « لا فائدة من وضع الخطط فكل شيء يتوقف على الحوادث فيما إذا كنا نستطيع أن ننتهز الفرص » إذ ليس من مصلحة البلاد أن يخاطر بالحكومة أو بنفسه من أجل تقاعسه عن تقديم مساعدة للثورة في (بنتي فيجنه) في صقلية ، وامتنع من تشجيع الحركة الثورية في طوسكانة وساعد على قمع الثورة في كراة واتخذ جميع التدابير لمنع التبرعات لشراء البنادق ؛ بيد أن ذلك كله لم يمنعه من تشجيع رجال الطليعة سرّاً واستطاع بمقابلاته لغارينا في اجتماعاته الصحفية والسرية أن يدير أكثر حركات

الجمعية القومية ، وقد اجتمع بغاريبالدى وقال له بأن يشجع أصحابه الآخرين ، كذلك شجع حركات الانفصال فى صقلية ومشروع بانيزى بإخراج سيمبرينى ورفقائه من السجن ؛ حتى أن مازينى نفسه اعترف بأن كافور إيطالى قلباً وقالباً .

على أن كافور وقف فى أوائل حركة الجمعية القومية موقف السياسى المتردد ، ولما كان باللافيجينو اخصما لفكرة الحلف الفرنسى على الضد من كافور فإنه كان لا يثق بكافور وأرد أن يستقطه من رئاسة الوزارة مؤملاً أن يخلفه مانين بيد أن مانين استطاع بحجامة الهادئة أن يقنع باللافيجينو بأن كافور يسير وراء الجمعية القومية إذا استطاعت أن تهدى رأى العام . وأن أحسن سياسة تقضى باكتساب كافور فى الاستيلاء عليه وحمله على الانضمام إلى معسكر أنصار الوحدة ، على أن مانين نفسه كان لا يعتمد على كافور إلى الحد الذى يضع فيه جميع ثقته ، فاعترم أن يكسب جانب الملك ، وكانت طبيعة الملك أكثر انبساطاً فى إباحة الأسرار وأشد صفاء بينما كان كافور يتجنب الانفتاح . ومع أن عطف كافور على الحركة القومية كان لا يقل حماسة عن عطف الملك ولكن هذا الأخير كان بصفته جندياً يمت التمسوين كل المقت وينتظر بفارغ الصبر يوم المعركة والانتقام ، حتى أنه قال ذات يوم للافيجينو « إذا لم تبكروا بالشروع فسأبدأ أنا » .

ولم يحل وجود فيكتور عمانوئيل زعيماً للحركة دون حاجتها

بطل شعبي وقد استطاع باللافيجينو أن يجد هذا البطل في شخص غاريبا لدى ، وقد استحق غاريبا لدى هذه المنزلة بفضل شجاعته الخارقة في موته فيديشو وروما وشمائله الكريمة النزيهة التي كوت منه رجلا دموقراطيا نبيلًا أما جرأته الخارقة وتفانيه في القيادة فقد جعلته معبود إيطاليا وكان يكره الدسائس السياسية ويمقت ألعيبها وكان ذا ثقافة محدودة ، قصر الرأي في المفاهيم السياسية . ولقد كان يتحجج الفرص فتارة يحسن انتهازها وتارة تفلت منه ، وأحياناً يتمسك بها في عناد على الرغم من أن الظروف قد تتطلب التخلي عنها وكثيراً ما كانت أساليبه مؤثرة لبساطتها وزاقتها ، إلا أنها يعوزها التبصر واتساع الأفق ، وكان يؤثر الدكتاتورية على الحكم البرلماني . وخلاصة القول كان غاريبا لدى عبارة عن قوة حمة النشاط لكنها غير منظمة تستطيع بيطواتها أن تسطر صحيفة خالدة في التاريخ كما كان يمكن أن ينجم عنها ضرر بليغ ، وقد أقضى غاريبا لدى عن ييمونته سنة ١٨٤٩ ثم سمح له بالعودة بعد انقضاء أربع سنوات على نفيه فأقام في كاربيره تلك الجزيرة الصحيرية الصغيرة القريبة من ساردينه وعاش فيها عيشة مزارع ، تلك هي الحياة التي كان يتمسكها وكان وقتئذ لا يزال جمهوري النزعة ، يمتق النموسيين والبابا مقتا شديدا .

ولكن جميع الظروف ومقتضيات الأحوال كانت تعمل على استجلابه إلى حظيرة الحزب الجديد ، وقد انتهى الأمر أخيراً

كأكثر الجمهوريين إلى وضع ثقته في فيكتور عمانوئيل وفي كافور إلى حد ما ، وكان على استعداد دائم لمحاربة النمسة مع أى حليف كان حتى مع الشيطان نفسه إذا كان الشيطان خصماً للنمسين وانضم بناء على إلحاح رجال لا فارينا إلى الجمعية القومية في صيف سنة ١٨٥٦ . وبينما كانت الجمعية القومية تعد العدد وترسم الخطط التي تضمن المستقبل كان أهل الجنوب يتشوقون إلى ظفر عاجل ، وكانت إنجلترا لا تريد أن تقوم بأى عمل يساعد إيطاليا الشمالية ، بيد أنها كانت في الوقت ذاته ملتزمة أدياً مثل فرنسا بالضغط على روما و نابولي . وكاد الامبراطور يسحب جنوده من روما ويجبر النمسة بالقوة إذا اقتضى الحال على إخلاء الروماني لولا خضوعه في أغلب الأحيان لنفوذ الامبراطورة والا كايريكين . وطالما كان ينصب نفسه مدافعاً حاراً عن الإصلاحات ، أما الوزير المفوض البريطاني (كلارندن) فكان طليق اليد لا يهاب من ناحيته الا كايريكين ، فلذلك نراه يستعمل كلمات قاسية في وصف الاستبداد ؛ إلا أن أنتونللى أجابه بحذق بأن الشعب الذي ولده مؤتمر باريس حال دون أى تساهل مع الأحرار وتوقع بأن يعتصم ضد اتهامات الامبراطور برسالة التبرئة التي أرسلها السفير الإفرنسي إلى الامبراطور ، ولعل أنتونللى كتبها بنفسه . أما الامبراطور فلم يقتنع بتلك الرسالة بل استدعى سفيره وخطب البابا بكلام قاس حتى أظهر أنه سيطالب بمنح الروماني والمارك حكماً ذاتياً مما اضطر أنتونللى إلى أن يتظاهر

بمزمه على التساهل فطبعت لأئمة قانون منقح للعقوبات إلا أنها لم تنشر أبداً ، وبت في مصير انسحاب الحاميات النمسية من بولونيه وانكونه ، وشرع البابا في جولة في أنحاء الرومانى وقد تلقى الأوامر بتنظيم مظاهرات الإخلاص إلا أن الأحرار بالاشتراك مع كافور والسفير البريطانى فى تورينو هدرن قاموا بتدابير مما كسة . وتقدمت المجالس البلدية بطلبات الإصلاحات ، ولما منعت الحكومة المجالس من عقد الاجتماعات الرسمية قدمت هذه مذكرات غير رسمية . واستقبل الناس البابا بفتور ؛ أما فى بيروزه فاستقبلوه بصرخات (الخبز والدستور) . وحين بدأ البابا يميل أخيراً إلى تلبية طلب الأهلين اعترف بمرارة بأنه ليس لديه الجرأة الكافية بالإصلاحات ، وبذلك حكم على نفسه بالعجز وقضى على آخر ما يمكن أن يعقد عليه من الآمال ، وقد اشترك أهل روما أنفسهم أيضاً بالطلبات ولكن حكومتى باريس ولندن ارتأت أن تصرفا النظر فى الوقت الحاضر عن اتخاذ تدابير جديدة .

وكانت الأمور فى نابولى أسوأ مما هى عليه فى روما ، وقد ألح والويسكى وكلا رندن كثيراً على فرديناند أن يمنح العفو وأن يصلح الحكومة ، وكانا يقولان له بأن لها الحق فى التدخل لأن وضع المملكة ينذر بالثورة ويدعو لها ويهدد السلم فى أوربا ، ولكن فرديناند رفض إجراء أى إصلاح بتعنت شديد . وكان المسجونون السياسيون على الرغم من الصرخات الاستنكارية التى تصاعدت (٢٢ م)

من أنحاء أوروبا المتقدمة يعاملون دائماً في وحشة زائدة ، وقد حبط المشروع الذي رتبته هدرسن وبانيزي لإخراج المسجونين من السجن ، وقد تظاهر فرديناند في حرب القريم بخصومته للحلفاء ورفض مساعدتهم على شراء الكبريت من صقليه ، ولما قابله ممثلا الدولتين لمباحثته في هذه الشؤون أجابهما بخشونة أنه كان يوشك أن يمنح العفو ولكنه عدل عن ذلك مؤثراً أن يظل أمر هذا العفو مطلقاً على أن ينفذه بالإكراه وقال لهما :

« إن دولته مستقلة ولا يوافق أن يمنح أى امتياز إلى حكومات تحمى الثوار » . وأخذ يستمد للحرب أملاً أن تساعد النمسه وروسية ، ولما نصحته النمسه نفسها بأن يتساهل خفف من غلوائه وارتأى الاقتصار على نفي المسجونين السياسيين إلى جمهورية الأرجنتين ومع أن الحليفتين كانتا قد استدعتا سفيريهما في تشرين الأول ١٨٥٦ فإنهما لم ينجحلا بعد ذلك من قبول هذا الحل الخزي خشية إغضاب النمسه وروسية وأن يؤدي ذلك إلى إعلان الحرب . والأغرب من ذلك أن فرديناند عاد فصرف النظر عن النفي فلم يتجاوز عمل الحليفتين قطع العلاقات .

وكان لوسيان مورات بن ملك نابولي السابق يواكيم مورات يقيم في ذلك الوقت في باريس وقد أوصى إليه ابن عمه الامبراطور بأن له بعض الحق في المطالبة بعرش نابولي وأخذته أداة خاضعة بيده ، ووضع السليتي وزير فردينايد السابق بتحريض من مورات رسالة

يدعو فيها إلى تأييد مورات في حقّه بالجلوس على العرش فيما إذا
رشح نفسه له وكانت الرسالة عبارة عن نداء لبق وجهه للأحرار
تدعو إلى تقسيم إيطاليا بين ييمونته و نابولي والتعاون على طرد
المنسويين والأمراء وترك روما ولا كورما كالللبابا . وقد لعبت هذه
الدعوة شطراً وافراً من النجاح وكانت البلاد بأجمعها باستثناء جمعية
لازاروني تطالب بخلع فرديناند . وكان أنصار الوحدة في مملكة
نابولي ضعفاء ، وقد أحبط كافور مساعي جميع أنصار الانضمام إلى
نابولي ولما كان الأحرار ضعفاء فإنهم لم يستطيعوا القيام بأى عمل
جدى ، فلاح للناس أن في تنصيب مورات بدلاً من فرديناند
ما يبشر بخلاص عاجل وكانت إنجلترا وفرنسه تتشوقان لطرد آل
بوربون إلا أنهما لا ترغبان في تحييد أى حركة ترمى إلى الوحدة ،
وقد استطاع مورات أن يكسب تأييد الكثير من الأشراف
واللاجئين من حزب الاعتدال في باريس وتورينو ، ولا سيما بعد
أن لوحث له فرنسه بمساعدتها الأدبية وكان له أنصاره الأقوياء في
نابولي ، وفي نفس صقلية كان له بعض الأنصار ، كاد كافور نفسه
أيضاً ينحرف بهذا التيار لولا أنه خشى أن يثير المشروع حسد
إنجلترا ، بيد أنه لما تأكد من أن الامبراطور يعارض مورات
لم يجرؤ على أن يظهر بمظهر المعارض له ولاح له أخيراً بأن المشروع
قد ينقذ نابولي من حالتها البائسة وقد يؤدى إلى التحالف مع
مورات ضد النمسه وقد يساعد نفوذ إنجلترا على إلحاق صقلية إلى

بيمونتة فإذا ما ارتقى مورات عرش نابولي أصبح من الصعب بل من المستحيل خلعه ، أضاف إلى ذلك أنه في حالة انضمام صقلية إلى بيمونتة سيقف مورات موقف الخصم من بيمونتة فتعاضده في ذلك جميع العناصر التي تكره الوحدة في شمالي إيطاليا فضلا عن مساعدة فرنسه له ، وإذا ما توات حكومة حرة زمام الأمور في عهد مورات فإنها تستطيع أن تستميل إلى طرفها جماعات الشعب المعارضة ، لذلك اعترض مازين على هذا المشروع وصرح بأنه إذا ارتقى مورات العرش سوف يصبح خصما لفكتور عما تؤيل بتأثير الظروف ويكون بهذا حليفا للنمسا بالسراويلانية ، واحتج البارزون من اللاجئيين على المشروع أما المسجونون السياسيون فصرحوا بأنهم يفضلون الموت في السجن على أن يصالحوا ذلك الأجنبي الأفاق .

أما مازيني فدبر ثورة تبدأ من نابولي وصقلية وتمتد في جميع أنحاء الجزيرة وتجرف بتيارها فريناند والبابا والتمسوين معا . فقد أصبح الحزب الانفصالي في صقلية في خبر كان وسارت السياسة التي ترمي إلى صب الشعب في بوتقة ايطالية واحدة . وكانت صقلية في نظر الثوار (جزيرة البدء بالعمل ونقطة الشروع نحو الوحدة الإيطالية وكان نيكولا فابريزي تلميذ مازيني الشجاع أخذ يسعى في مالطة ناشطا منذ خمس سنوات لتنظيم عناصر الاستياء والاشتياق للعمل وقد تباحث مازيني وغاريبا لدى إعداد خطة لإرسال قوة لإثارة

الجزيرة ، ولكن غاربا لدى لم يوافق على الذهاب ما لم يعد كافور بالمساعدة . واستطاع لافارينا تنظيم حزب أنصار بيمونته في الجزيرة ، وأكد بالمرستون بأنه يوافق على إزال القوة الإنجليزية الإيطالية إلى صقلية حين عودتها من القريم ، وفي نهاية سنة ١٨٥٦ رفع البارون الفتى بنتى فيجنة العلم المثلث الألوان في الجزيرة قرب ترميني آملا أن تنجده إنجلترا وفرنسه ولكن لم يلب النداء من أهل صقلية إلا قليل منهم وقد طارده رجال الحكومة وأعدم رمياً بالرصاص ، وثمة هيئة عرفت (بلجنة النظام) لجماعة الأحرار كانت تعمل في الجزيرة لها دعايتها وصحافتها السرية ، ولكن الجميع كانوا يعتقدون أن الثورة في العاصمة ، باليرمو غير مضمونة النجاح وكان أحرار لا بأسا ليكانه ونابولي منظمين تنظيمًا جيدًا وقد اتخذوا للثورة الأهبة وأعدوا مئات من الرجال المساعدين ، ومما يلفت النظر أن أنصار مازينى وأنصار بيمونته كانوا يعملون متفقين واشتد صخب الناس على آل بوربون حتى أن أحد الجنود من كلبريه حاول اغتيال الملك حين استعراضه الجنود في ٨ — كانون الأول ١٨٥٦ واستطاع الملك فرديناند بهدوئه أن يحول دون تبادل الجنود السويسرين والطلليان إطلاق النيران من بنادقهم . وحدث بعد ذلك انفجارات دمرت مخزن بارود بالقرب من البلاد وسفينة حربية كانت راسية في الميناء . وكان أخ الملك وعمه متصلين بالأحرار . وكان مازينى رغب في تدبير حركة ثورية في جنوه وليفورنه ،

غير أنه قرر أخيراً أن يضل الحركة بمؤامرة دبرها أحرار نابولي ولا باسيلكانه وبعض اللاجئيين النابوليين والصقليين في جنووه ، وحاول كارلو بيساكانه أحد دوقات نابولي مع آخرين الاستيلاء على الباخرة كاجليارى وكانت تمخر بين جنوى وساردينية والسفر بها إلى بونزى بالقرب من جايته لإخراج المسجونين من السجن وإزالهم إلى سابرى ليلتحقوا بثوار باسيلكانه ، ويعقب ذلك الزحف على نابولي ، وأنيط بالدموقراطيين في جنووه وقتئذ مهمة الإستيلاء على المدينة وحصونها وإرسال الندد ، ومع أن المتآمريين أنكروا أى محاولة لقلب حكومة جنووه وزعموا أنهم لا يريدون سوى الحصول على السلاح والرجال مدداً للحركة ، فإن مازينى كان يعتبرها ثورة جمهورية مما حدا بعقلاء الدموقراطيين كغاريبالدى وبرتانى إلى الإعراض عن مظاهرتها . لقد استولى بيساكانه على الباخرة كاجليارى فى ٢٥ - حزيران ١٨٨٧ وفق برنامجه ، إلا أنه بإزاله أربعمائة سجين من المحكوم عليهم إلى سابرى قد أضر بسمة الحركة فضلاً عن أن أهل باسيلكانه ، بسبب إهماله ، لم يكونوا على أهبة للحركة حتى إن القرويين قاوموا رجاله ، وأخيراً وبعد عمالك تغلب القرويون والمشييا على عصابة الصغيرة ومات بيساكانه ونصف رجاله ، أما النصف الباقى فوقع فى مخابل قضاة فرديناند وانتهت الحركة فى جنووه وليفورنه دون أن تجدى ، وبعد أن سببت خسائر على غير فائدة ، وقد عاملت حكومة بيمونته المتآمريين المقبوض

عليهم معاملة قاسية لا تقل في قسوتها عن معاملة فرديناند للثائرين .
وجاءت حركة باسيلدكانه هذه آخر ضربة طعنت نفوذ مازيني ، وعاد
أخلص رجائه لا يثقون بزعامه رجل كان الفشل نصيبه في جميع
الحركات ، فضلا عن أن تلك الحادثة قد قضت على مشروع موراث ،
أيضاً وطبعت حركة الوحدة في الجنوب بطابع جديد .

وكان من نتيجة الحركة المذكورة أن اشتمد التوتر بين نابولي
وبيمونتته ، واستولى أسطول نابولي على الباخرة كاجلياري عرض
البحر وألقى ببحارتها وبينهم ميكانيكان إنجليزيان في السجن النابولي ،
وطالب سفير ملك تورينو بالباخرة وطلبت الحكومة الانجليزية
إخلاء سبيل الرعايا البريطانيين ولكن فرديناند رفض أن يسلم
الباخرة وبحارتها وأخذت الحادثة تهدد بنشوب الحرب فتدخلت
وزارة دربي البريطانية في الأمر وبإطلاق فرديناند سبيل الإنجليزين
تخلت الحكومة البريطانية عن التدخل في الأمر ، فحق الرأي العام
في إنجلترا على حكومته لخضوعها المزري وأكره الحكومة على
طلب الغرامة والعمل مع حكومة تورينو في الموضوع ، نخشى فرديناند
سوء العاقبة وأخلى سبيل الباخرة وقدم تضمينات للميكانيكيين ،
فأضافت هذه الحادثة إكليلا جديداً من النصر إلى سياسة كافور .
وبلغت سلطة كافور في بيمونتته المرتبة التي لا تملى ، وقد تمتعت
بيمونتته في العهد الذي تولى فيه كافور رئاسة الوزارة على الرغم
من المعجز السنوى الذى أصاب الميزانية والزيادة الخطيرة المطردة

في القرض القومي ، رخاء لا مثيل له ؛ فنمت الزراعة وراجت التجارة وعتت السكك الحديدية ، وفي عهده توفق « لانزه » وزير المعارف إلى رفع مستوى المدارس الأولية والثانوية ، وأوجب القانون الذي صدر سنة ١٨٤٨ ففتح مدرسة أولية في كل ناحية ، فبلغ عدد المسجلين في المدارس عشرة بالمائة من مجموع الأهالي رغم النقص البارز في المعلمين الأكفاء ، وترك قانون لانزه المدارس الخصوصية إلا أنه أقر لوزارة المعارف بسلطات محدودة لمراقبة تلك المدارس ، وفرض المعلمين اختيار الامتحان وفتح دور المعلمين وحدد الحد الأدنى لأجور المعلمين واقترح تأسيس مدارس للصناعة ، بيد أن لانزه جابه معارضة شديدة ، فالإكليزيكيون عارضوا في فرض رقابة على المدارس الخصوصية ، ومع أن كافور وكثيراً من الأحرار كانوا يقولون بقول رجال الدين في ضرورة إطلاق حرية التعليم إلا أن رجالاً كثيرين آخرين كانوا يقولون بضرورة رقابة الدولة على التعليم وكانوا يحذرون امتداد نفوذ الكليروس عن طريق إطلاق حرية التعليم ضاربين المثل بما كان يتمتع به الكليزيكيون في فرنسا وبلجيكة من نفوذ باسم حرية التعليم ، واضطر كافور أن يضحى برأيه الشخصي ثم أقر المجلس القانون ، وكان تأثيره في المدارس الثانوية مبالغتاً ، ففي خلال سنوات بلغ عدد التلاميذ فيها أربعة أضعاف ما كان قبل القانون ، وأقر مجلس الأمة مشروع لا مارمورا الذي يقضى بإقامة شبكة حصون بين الكسندرية وكاساله وفالانسه لإعاقة تقدم النمسيين في حالة نشوب الحرب

ربما ترد النجيدات الإفريقية ، وقد دشّن المبارديون من وراء
نهر نستينا زيارة الامبراطور فرنسوا جوزيف للمباردية بفتح
اكتتاب لإقامة تمثال في تورينو باسم الجيش البيمونتي مما اضطر
حكومة النمسة إلى استدعاء القائم بأعمالها من تورينو إلى تبادل الكتب
الشديدة المهجة بينها وبين حكومة تورينو ، ثم إلى قطع العلاقات
بينهما ولم ينجح بالمرستون في إقناع بيمونته بإعادة العلاقات .

وأدت دعاية الجمعية القومية إلى لم شمل الأحرار في إيطاليا
كلها وبذرت بذور الثورة في جميع الدول المستبدة ، وأدى فشل
الجمهوريين النهائي إلى زوال احتمال خطر الانشقاق في صفوف
الأحرار حتى أن بعض أعضاء حزب أقصى اليمين كانوا على استعداد
لمعاوضة الحركة القومية ضد النمسة واستمرت بيمونته في مساعيها
للتأهب للحرب ولاح لها احتمال معاوضة فرنسه بإياها ف راحت
تنتظر بثقة بدء المعركة بعد أن أطمأت إلى إمكان الظفر بجيش
حليف يساعدها في الميدان ، وبعد أن تأكد لها إقبال أحسن
العناصر في إيطاليا على تأييدها ، بيد أن العناصر الرجعية قررت أن
ترمي آخر ما في جعبتها من سهام وأن تقدم بتجربة أخيرة ولاح
لها أنه يمكن استرضاء إنجلترا ببعض إصلاحات تجرى في لمبارديه
والروماني ولا سيما لأنها كانت تميل إلى النمسة وتحشى مطامع فرنسه
وشجعهم على الإقدام ارتياحهم بإقدام فرنسة على مساعدة بيمونته لأن
الامبراطور كان يتحاشى الاصطدام بروما فضلا عن أن الانتقادات

التي وجهتها إليه الصحافة المتطرفة في تورينو وجنوه قد أغاضته كثيراً ، ورأى الرجميون أن سبيلهم للعمل هو تقوية مركزهم في الداخل وخوض غمار انتخابات تضمن فوزاً كثيرة لهم ، وهذه الانتخابات تجري قريباً في ييمونته فيستعدوا لها وكانت هذه الخطوة محكمة التدبير فالضرائب الباهظة كانت حجة يسهل استغلالها لإثارة الناس وكانت آيالة صافوية نفسها لا تعطف على الآمال الإيطالية إلا قليلاً ، وكان الأشراف ورجال الدين ذوي نفوذ كبير فيها . أضف إلى ذلك أن الأحرار في ييمونته كانوا متفرقين يهاجم بعضهم البعض الآخر بدلاً من التضامن في مقاومة العدو المشترك . وقد تزعمت روما هذه الحركة واستعدت لها في الخفاء استعداداً عظيماً شرع بالعمل بأن دوت في جميع الأنحاء صرخة : « الكنيسة في خطر » وجرف التيار حتى أكثر أساقفه وطنية فأثروا الكنيسة على بلادهم وجرت الانتخابات في تشرين الثاني سنة ١٨٥٧ ولم يبد الأحرار حتى النهاية أي تخوف ولم تأبه الحكومة للامر ولم تستخدم نفودها في الانتخابات كالعتاد وتقدم في اللحظة الأخيرة مرشحيون أكليريكيون في جميع الدوائر الانتخابية ، فانتخبت صافويه وريفيرا وجنوه نفسها التي كانت إلى ذلك الحين معقل أقصى اليسار جماعة من الرجميين ، أما في ييمونته فقد خسر الأحرار بعض الكراسي في الدوائر الريفية ولو لم يجمع الأحرار شملهم ويلموا شعبتهم في الساعة الأخيرة لكانت أكثرية المجلس النيابي الجديد من الأكليريكيين

ولكنهم ييقظتهم الأخيرة واتحادهم أدباً إلى تغلب الأحرار على العناصر الرجعية على الرغم من كل المساعي التي بذلتها ، وكانت نتيجة المنافسة أن تلاشت جماعة اليسار وجماعة اليمين المعتدل وإن أصبح الحزبان الكبيران وحدهما وجهاً لوجه : الأحرار والرجعيون ودل فوز واحد وأربعين من الأشراف بمقاعد في المجلس النيابي على ما بذله المحافظون من رجال المعارضة من المساعي ، وعلى أن طبقة الأشراف أخذت تشترك في الحياة السياسية ، وبنتيجة الانتخابات صار كافور يستند إلى أكثرية متجانسة عاهدته على أن تسير وراءه حتى أن بروفيرو وفاليريو كفا عن انتقاداتهما حين أدركا الخطر ، وطالبت الأ أكثرية لأسباب مختلفة باستقالة رتازي . ولما كان كافور ينقم على وزيره لشكته بوعده في مساعدته على التفريق بين الملك وخليفته ، فإنه استوصى مصلحة الدولة أكثر من واجب الصداقة ورجا رتازي أن يتخلى عن منصبه ففعل في وقار وعدم اكتراث .

الفصل الخامس والعشرون

بلومبير

١٨٥٨ — ١٨٥٩

لم تكذب تلك الانتخابات حتى جابه كافور أزمة غير متوقعة .
وتفصيل تلك الأزمة أن وطنياً إيطالياً اسمه (أورسنى) كان مازينى
يثق به ويعتمد عليه فى مشاريعه الثورية وقد أبعد عن ييمونته
ووقع بيد الشرطة المنسوية فزجته فى السجن ثم استطاع أن يفر منه
بأعجوبة أدهشت أوربا كلها ثم انفصل عن زعيمه مازينى فحنق
المازينون عليه حنقا حملا على أن يقدم على عمل جريء عظيم بغية
اسكات الذين بالغوا فى انتقاده والتهجم عليه ، فعقد النية على اغتيال
الامبراطور لويس نابليون لأنه يعتبره المستبد الذى سحق الجمهورية
فى روما وباريس والذى اتخذ من نفسه أداة لمقاومة الثورة ، وكان
يعتقد أن الامبراطور قد تحالف مع النمسة لسحق إيطاليا واقتنع
بأنه لن تنال إيطاليا حريتها إلا إذا انسحب الامبراطور من
الميدان وفى ذات مساء من شهر كانون الثانى ١٨٥٨ بينما كان
الامبراطور وزوجته الامبراطورة يستقلان المركبة نحو الأوبرا
ألقيت عليهما ثلاثة قنابل فلم يصابا بأذى ، وإنما أصابت القنابل

مائة وخمسين رجلا من الجماهير المتحشدة بين قتيل وجريح تلك هي حادثة أورسيني .

وقد أخذت جرائد باريس عقيب الحادث تصب لعنائها على انجلترا التي حمت أورسيني وعلى بيمونته التي أصبحت غيبثا للجنة وقائلي الملوك وطالبت الحكومة الفرنسية لندن وتورينو بأن تحم من نشاط اللاجئين وتسكت جرائدهم وقد تأزمت الحالة حيناً وخشى الأحرار أن يؤدي الحادث إلى فقدان عطف الامبراطور على إيطاليا فأصبح موقف كافور صعباً وقد حاول قبل حادثة أورسيني كثيراً تهدئة الامبراطور فطارد المتآمريين من أهل جنوه بشدة وطردهم اللاجئين بالثلاث إلا أنه لم يشأ أن يهين كرامة بلده بالخضوع إلى رغبات الامبراطور فأخذ البعض من أنصار كافور المتحمسين من زملائه يتذمرون ، وأبت عليه عزة نفسه وكرامة وطنه أن يدعن ، فلما أرسل الامبراطور كتاباً بخط يده يتوعد فيكتور عما نوئل أجابه الملك عملاً بنصيحة كافور بأنه لا يرضى قط بالضغط عليه ، واقتصرت التدابير التي اتخذها كافور على تعديل قانون المطبوعات بحيث صار يخول الحكومة معاقبة من يكتب مجذاً المؤامرة ضد الملوك الأجانب بناء على طلب الحكومة ذات الشأن ، وعلى الرغم من أن لأئحة القانون كانت معتدلة فإن أعضاء اليسار لم يتحمسوا إليها ولكن رتازي أيدها فأقرها المجلس بأكثرية ساحقة .

وما كاد الذعر في باريس يزول حتى أخذ الامبراطور يعطف على القضية الإيطالية أكثر من قبل كأن حادثة أورسيني دفعته إلى ذلك بدلا من أن تزيد في غضبه ، ذلك لأنه رغب في استمالة جانب بيمونته في حالة وقوع حرب مع إنجلترا كما وإن أورسيني قبل إعدامه أرسل إلى الامبراطور كتابين ناشده فيهما بالدم الإيطالي الذي يجري في عروق الامبراطور وأنتدبه بأن السلم في أوربا لن يستقر وأن عرشه لن يتوطد ما لم تبلغ إيطاليا أمانها القومية وكتب له يقول : « انقذوا إيطاليا تنالوا تقديس خمسة وعشرين مليوناً إيطالياً » وكان لهذه الاستغاثة تأثير عميق في نفس الامبراطور ، وبعد أن خشي ببولونية التي كان يعطف قبلا على آمالها رغبة من التقرب من روسية ، اشتدت حماسته في تنفيذ الرغبة التي طالما تآقت نفسه إليها لإنقاذ إيطاليا وهنغاريا . وكان كافور قد جلب رضاء الامبراطور بالوقوف إلى جانبه في خصومته ضد إنجلترا والنمسة في مسائل ثانوية أثارتها معاهدة باريس ، وكان الأمير جيروم نابليون بن عم الامبراطور الذي يدير جماعة الأحرار وأعداء الكليريكين في بلاط الأمبراطور قد بذل كل نفوذه في وضع أساس حلف إفرنسي — إيطالي .

ودعا الامبراطور كافور في ٢٠ — تموز إلى لقاء في قصر بلومبير خلصة بغية عقد ميثاق نهائي لإنقاذ إيطاليا وأسفر الاجتماع عن توفيق لكافور إذ وعده الامبراطور بأن يهاجم في الوقت

الناسب وأنه سيجهرز لذلك مائتي ألف جندي على أن تجهز بيمونته نصف هذا العدد ، وكان الامبراطور قد توقع حياد روسية وإنجلترا في نزاع ينشب بين فرنسا والنمسة ووعده أن يطلب إلى النمسة بأن تتخلى عن جميع ممتلكاتها في إيطاليا ، ولم يشأ الامبراطور أن يمس أراضي البابا بيد أن كافور ألح على ذلك فتم التفاوض بينهما حول ضم أراضي الرسالة إلى بيمونته بالإضافة إلى لمباردية وفنيسية والدوقيتين ، ومن المحتمل ضم المارك أيضاً وبذلك تتأسس في شمال إيطاليا دولة ملكية يبلغ نفوسها أحد عشر مليوناً ، أما طوسكانة وأومبرية فتؤولان دولة ملكية في وسط إيطاليا قد تملكها الأميرة الوصية في بارمه ، أما البابا فيحتفظ بروما والكاراكه بحماية حامية افرنسة ويترك فرديناند لرحمة رعيته ، وكان الامبراطور يفضل بأن يرفض مورات عرش نابولي بعد الثورة التي لا بد من نشوبها في نابولي ثم تؤلف هذه الدول الأربع الاتحاد الإيطالي ، ثم جرى البحث حول مغنم الامبراطور من هذه المساعدة واشترط الامبراطور ما يلي :

أولاً — لا تستغل الحرب لتشجيع فكرة الثورة بل يجب أن تستند الثورة الإيطالية أو الحرب إلى أسباب سياسية تسوغها وتدل على مشروعيتها في بلاده وفي إنجلترا ، فتقرر اتخاذ وطنية مقاطعة « ماسا كراه » ، التي كانت في حالة عصيان مستعمر ضد دوق مودينة حجة يسهل التذرع بها .

ثانياً - أن يتزوج الأميرة كلوتيلده بنت ابنة فكتور عماونيل من الأمير نابليون ، وأخيراً وهنا الثمن الحقيقي للتخلي عن أيلة صافويه ونيس لفرنسه ، ثم لوح باستعداده لتأجيل البحث حول نيس ولكن أصر على أخذ صافويه لتمتد حدود فرنسه إلى جبال الألبه ، وبذلك تنال فرنسه على الأقل حدودها الطبيعية في الجنوبي الشرقى ولا سيما لأنه يطمع أن تساعد هذه الحدود في المستقبل على توسيع أرض فرنسه إلى ضفاف الرين .

وظل الموقف رغم النجاح الذي ناله كافور في بلومبير صعباً والغاية بعيدة المنال ، ولقد أظهر كافور جرأة فائقة في زج بلاده في مأزق لا يمكن الرجوع عنه وأخذت بيمونته تتقدم نحو الحرب في سرعة وعزم ، وما هي إلا أشهر قليلة حتى صار لا بد لبيمونته من أن تخوض غمار حرب فاصلة ، هي حرب حياة أو ممات للمحافظة على شرفها وسمعتها . وإذا لم تقم فرنسه بمساعدتها فلا بد من أن تسحقها جيوش النمسه وما لم تحارب القطعات الإفرنسية في جانبها فإن الشجاعة البيمونية وحدها لن تخلصها من مخالب جارتها الجبارة على أن المساعدة الإفرنسية لها تضمن ، ولا شك في أن الامبراطور كان صادقاً في وعده لكن الصعوبات التي يلاقيها في تمهيد المجال كانت عظيمة ، وحسبنا أن نذكر قدرة الحزب الاكاريكي على حشد قواه للحيلولة دون حرب تؤدي حتماً إلى الهجوم على سلطة البابا الزمنية ، وكان الامبراطور لا يجرؤ على

إغضب هذا الحزب ، ثم إن رجال المال في باريس كانوا يخشون الحرب وتأثيرها في السوق ، ولم ينظر الأحرار بعين الرضا إلى سياسة من شأنها أن تقوى سمعة الامبراطورية ، وأن تزيد من نفوذ الامبراطورية بحيث تقضى على الاستياء في الداخل ، وكان وزراء نابليون يجهلون نبأ اجتماع بلومبير جهلاً تاماً ، ولما أطلعوا عليه لم يكتموا الملك معارضتهم إياه ، هذه بعض العقبات في الداخل ، أما في الخارج فكانت أشد منها في الداخل ، وكان تذليلها أصعب منالاً ، فمنها أن الإمبراطور كان يعلم أن إنجلترا سوف تبذل كل جهدها للمحافظة على السلم مع أن الوزارة البروسية وقتئذ كانت حذرة من فينا ، إلا أن الرأي العام الجرمانى الذى يعطف على فكرة الاتحاد الجرمانى كان يعتبر لمبارديه وفنيسييه من أراضى الاتحاد المنشوى وأن (فيرونه ومانتويه) من المواقف الامامية للوطن الجرمانى ، فهو والحالة هذه قد يضغط على حكومة برلين ليحملها على مخالفة النمسة ، ثم أنه رغم صداقة فرنسه لروسية كبيرة ورغم أن بروسية تغتبط لضياح لمبارديه من النمسة فإنه كان من المشكوك فيه جداً بأن تقدم روسيه المستبده مساعدتها أو عطفها المثمر فى حرب تستهدف فوز القضية الوطنية ، ولم تكن العقبات التى تعترض كافور فى سبيل خلق الفرصة أقل شأنًا من تلك التى يلاقها الامبراطور ، وقد عزم كافور أولاً : على أن يجبر النمسة إلى الحرب بإغضابها ، ولما لم يوفق إلى ذلك أخذ يترقب سنوح (م ٢٣)

فرصة قد تنجم عن تطورات القضية الشرقية أو عن تمرد يحدث في كراهه ، وظل متردداً في قضية دولة آل لورين في طوسكانه ، هل يدبر الدسائس ضدهم بغية إلحاق طوسكانه ببيمونته في الوقت المناسب ؛ أم عليه أن يصرف النظر عن ذلك لأن الدول الكبرى قد لا توافق على ذلك ، ثم إنه كان في الوقت نفسه ينظر بعين القلق إلى رغبة الامبراطور لويس نابليون في تأسيس ملكية إيطالية الوسطى ، ونصب أمير افرنسي على عرشها ، ولذلك فإن استبقاء آل لورين في عرشهم ضمان ضد تنفيذ رغبة الامبراطور وعليه تلقى مندوبه في فلورنسه تعليمات تقضى عليه بأن يبذل جهده في استمالة أمير طوسكانة إلى جانب الأحرار .

وبعد أن وثق كافور من معاضدة الامبراطور إياه وجه اهتمامه لحل المشاكل الداخلية ، التي لا تقل خطورة عن المشاكل الخارجية . إنه لم يكن يخشى شيئاً من جانب بيمونته ، وكان يعلم بأنها سوف تلبى نداء الملك وتقاوم العدو مهما كانت قوته . ولما عرض للأئمة قرض جديد بأربعين مليوناً من الليرات وافق المجلس عليها بأكثرية ساحقة واقترح حزب اليسار بزعامة رتازي ضد اللائحة المذكورة ولكن كافور اطلع رتازي على محادثات بلومبير فوعده بالمساعدة ، ثم دلت موافقة مجلس الأعيان على اللائحة على انحياز المحافظين الشيوخ إلى جانب القضية القومية ولكن جهود بيمونته وحدها لا تكفي لظفر القضية الإيطالية ، وإنما الواجب كان يقضى عليه بأن يهدف في

إيطاليه توافق تام في الآراء تتحطم أمامه كل معارضة سياسية ويكون من القوة بحيث تظهر فرنسا إلى الأخذ بيده وتشجع على ألا تقبل من حليفها إلا مغنا شريفاً ، وكانت الجمعية القومية قد سمعت كثيراً إلى تنظيم هذا الاتفاق في الآراء ، وأخذ كافور يسعى من جانبه لإكمال العمل الذي بدأت فيه الجمعية ، وكانت سياسته في جر النمسه إلى الحرب تستند في مجموعها إلى التذرع بالحجة القائلة بأن لمبارديه وفرنسية تكابدان اضطهاداً لا يطاق ، وأما إذا لم يستطع التذرع بهذه الحجة فإن الحرب تفقد سببها الأصلي ، ولم يكن للنمسه حليف سوى إنجلترا ، أما فرنسا وروسية فأخذتا تضمران لها الخصومة أكثر من قبل ، وأما بروسية فكانت تتقرب بفارغ الصبر الفرصة التي تمكنها من استلام صولجان الزعامة في ألمانيا فإلى على النمسه إذن سوى أن تظهر أمام العالم المتمدن بمظهر غير المستبد ولا سيما بعد أن اتهمها مؤتمر باريس بالاستبداد فرفعت الحجز عن الأملاك في نهاية ١٨٥٦ . ونصبت الارشيدوق مكسميليان أخا الامبراطور الصغير حاكماً عاماً على لمبارديه وفرنسيه لتهديته الحال وإزالة الاستياء فيهما ، وكانت آراء مكسميليان السياسية مشبعة بالتسامح ولو خير في الأمر لاختار إعطاء الدوقيتين إلى بيمونته واتخاذ الروماني من الاضطهاد بضمها إلى الامبراطورية وتأليف اتحاد إيطالي بزعامة البابا ، ولكن منح لمبارديه وفرنسيه حكماً ذاتياً واسع النطاق ومؤسسات تمثيلية وجيشاً إيطالياً ، وكانت

شمائله الشعبية واسرافه في الإنفاق واعتماده على استشارته رجال
البلد دائماً ورغبته الصادقة في مداواة أمراض الإيالتين والنشاط
الذي بذله في هذا السبيل ، ذلك كله جعل المعارضة تلقى سلاحها .
والتف حوله بعض الإشراف المحافظين وبقايا الحزب المعارض
لييمونته ؛ ذلك الحزب الذي أخلى الميدان بسرعة ، وتخوف الأحرار
وكافور من عواقب هذه السياسة التي يسلكها ماكسيميليان وأن
تؤدي إلى إقبال لمبارديه على التفاهم مع الأجنبي ، ولم تكن مخاوفه
في محالها لأن أهل لمبارديه وفنيسييه كابدوا من سوء الحكم القاسي
منذ عشر سنوات ما يجعل التفاهم مستحيلاً وما جعل وداعة
الميلانيين تنقلب إلى شراسة شديدة . وقد صم الأحرار آذانهم عن
سماع وعود مكسيميليان الخلافة ، ولما رفضت الحكومة المركزية
في النمسه مقترحات مكسيميليان انهيار آخر أمل في التفاهم . وكان
الحزب العسكري ما يزال مسيطراً على الأمور في فينا ، وحدثت
حادثتان جنونيتان قضتا على مساعي الارشيدوق : أولاهما تخفيض
قيمة العملة بتوحيدها في جميع أنحاء الامبراطورية ، وثانيها توسيع
نطاق التجنيد بمنع المكلفين بالخدمة العسكرية من الزواج قبل
الثالثة والعشرين من العمر ؛ الأمر الذي أحدث تأثيراً شديداً في
نفوس الناس وبث روح النفرة في نفوس القرويين .

وغدا كافور طليق اليد في تنفيذ خططه المتملقة بياق إيطاليا
وتجنيد جميع عناصر الأمة وكفاياتها لاستخدامها في المعركة القادمة

وكان انصاره المخلصون الذين يفتبطون بتأسيس مملكة قوية في شمال إيطاليا هم الأكثرية في ييمونته ولبارديه وفنيسيه والدوقيات . ثم إن دعاة الوحدة الذين يؤلفون الجمعية القومية كانوا يزدادون يوماً فيوماً ، أما أنصار الحكم الذاتي ولا سيما في طوسكانه وناپولى وهم القائمون باستغلال الدول الصغيرة والذين ينفرون من روح ييمونته العسكرية المحافظة فكانوا مشتتين هنا وهناك . وأما الجمهوريون فقد أخذ عددهم يقضاء ولكن صفرفهم لم تكن تخلو من العناصر ذات الرجولة القومية والحيوية . ولكي يستميل كافور أنصار الحكم الذاتي إليه اجتمع كل سياسة رسمية تستهدف ضم إيطاليا الوسطى والجنوبية إلى ييمونته ، وسمى إلى استمالة الأمراء إلى القضية القومية بالقضاء على الشكوك التي ولدتها الحركة الأبرتية سنة ١٨٤٨ . وبموت مانين في خريف سنة ١٨٥٧ أصبحت الجمعية القومية تحت سيطرة باللافيجيو وسكرتيره الغيور لا فارينا ، مع أنها لم تكن أداة بيد كافور ، إلا أنها كانت تلبي أوامره في الأزمات ، ولما كان موضوع الوحدة دون الاستقلال هو مثار الخلاف فإن شعار الاستقلال حل محل الوحدة الإيطالية ، وصدرت الأوامر بإيقاف أى جدل سياسى في نهاية الحرب الاستقلالية ، وكانت الجمعية القومية قوية النفوذ في الايلات النمسوية وفي الدوقيات وبلغت الحماسة الوطنية والوعى القومى في لبارديه حداً عظيماً ، حتى أصبح العمل للحيلولة دون الانفجار من مشاغل

الجمعية الصعبة . أما في الرومانى فأتحدت التشكيلات القومية المختلفة بانضمام بعضها إلى البعض الآخر وأنبثت لجانها في جميع أنحاء الأيالة . أما في صقلية فكان تفوق الجمعية على الجمهوريين مستمراً بيد أنها لم تستطع أن تقوم باستعدادات فعلية في نابولى . واستخدم كافور الجمعية القومية في جمع المتطوعين من جميع أطراف إيطاليا ، وهو لم يكن يعلق كبير أهمية على استخدام هؤلاء من الوجهة العسكرية ؛ إنما كان يدرك خطورة إرسال أكبر عدد ممكن من هؤلاء إلى ساحة الوغى . وأثر ذلك في منع الامبراطور من الحصول على جميع الكليل الانتصار ولإعطاء بيمونته أقوى صوت فعال في التنظيم الذى يلى الانتصار . فضلاً عن أن حركة التطوع قد تدفع النمسه إلى إعلان الحرب . وسار كافور على خطته في إحداث الشعب في ماسّة كراهه لخلق ذريعة الحرب ، وقد أقر مشروع لا فارينا في إعداد الثورة بإرسال غاريبالدى مع المتطوعين لمساعدة الثورة مؤقتاً بأن الحركة المذكورة سوف تضطر النمسه إلى اتخاذ تدابير حاسمة . فأستدعى غاريبالدى إلى تورينو وكان يثق وقتئذ بكافور والملك ثقة عمياء ، وعهد إليه بالأمر فقبل المهمة التى أنيطت به في شوق ولهفة ورجع مغتبطاً بقرب نشوب المعركة .

وعلى الرغم من ذلك كان الكثير من الأحرار لا يزالون مترددين . ويرجع سبب ذلك إلى تقصير كافور في مساعيه السرية ،

ومع أن المقربين إليه كانوا يعلمون بأن الحرب سوف تنشب في الربيع القادم إلا أن كافور لم يستطع إقناع الجماهير بنياته ، وكانت لمبارديه تترقب الحرب بفارغ الصبر . وفي المراسم التي جرت في أوائل سنة ١٨٥٠ فاجأ الامبراطور السفير النمساوي بقوله بأنه يأسف ؛ « لأن العلاقات بين الامبراطوريتين لم تكن حسنة كما يجب أن تكون » وكان من تأثير هذا القول أن اشتد التوتر بين فرنسه والنمسه وعدته أوربا نذيراً بالحرب ، ومع أن كافور فزع لهذا التصرف المبتسر إلا أنه علم بأن مصير ييموتة أصبح في الميزان فما عليها إلا أن تستغل ذلك التصريح الجريء بمناسبة افتتاح المجلس النيابي في ٧ كانون الثاني كتب كافور خطاب العرش وأشار فيه « إلى أن السنة الجديدة ليست صاحبة ، تمام الصحو » ولما اعترض زملاؤه على هذا القول واعتبروه شديد اللهجة ، استشار الامبراطور فصاحبه بما هو أشد لهجة إذ أضاف إليه العبارة التالية بدلا من عبارة كافور : « ولا يسع الملك إلا أن يصغى إلى صرخات الاستغاثة الموجهة إليه من أكثر أبناء ايطاليه » . ودلت الحماسة البالغة التي تجلت في المجلس وأروقته حين تلاوة ذلك الخطاب على أن تلك الكلمات الجريئة قد أصابت الرمي .

وهكذا اتضح للعالم أجمع بأن الامبراطور عازم على الحرب في القريب ، وكان جواب النمسه على الخطاب أنها أرسلت فيلقا إلى لمبارديه ورغم أن الامبراطور كان يميل إلى تأجيل المحادثات

إلى أن تم استعدادات جيشه وتصبح النمسة منزعلة تماماً ، فإنه لم يربداً من أن يأمر سرّاً قواته المرابطة في ليون بأن تستعد لاجتياز الألبه وسافر الأمير نابليون إلى تورينو لطلب يد الأميرة كلوتيلده وحين وصول هذا الأمير إلى تورينو عقد الحلف المهجوى بين فرنسه وبيمونتة في ١٨ — كانون الثاني ، وقضت معاهدة التحالف على أن تنظم في حالة الانتصار ايلتا لبارديه وفنيسيه والدوقيات والرومانى . وإذا أمكن المارك أيضاً إلى بيمونتة وتضم فرنسه إلى أملاكها لقاء ذلك إيالة صافويه . أما مدينة نيسى فينظر في أمرها فيما بعد . ونصت الاتفاقية العسكرية التى عقدت في الوقت نفسه على أن تبدأ الحرب بين منتصف نيسان ونهاية تموز وأن تقدم فرنسه مائتى ألف جندى .

وباغت الامبراطور وزراءه في أوائل شباط بعزمه على إصدار بيان بشأن القضية الإيطالية ، ثم صدر البيان في صورة رسالة بعنوان « نابليون الثالث وإيطاليه » أوضح فيها الامبراطور آراءه في القضية الإيطالية ، أما النقاط الواردة فيه فتدور حول تطمين الشعور القومى الإيطالى ونشل البابا من موقفه الحالى بتنفيذ خطة الاتحاد الإيطالى ، وأشارت الرسالة إلى أن الوحدة الإيطالية غير ممكنة وأن نابولى وطوسكانه يجب أن تحتفظا بعريشهما وأن تقسم إيطاليا إلى ثلاثة أقسام تقسماً يتم على حساب النمسه والبابا ، ويقول البيان بأن روما يجب أن تصبح عاصمة الاتحاد على أن تترك المدينة

للبابا مع إعادة إصلاح الحكومة ويكون لها جيش تجنده البلاد، ومن ثم تنسحب الحامية الفرنسية، وأظهرت الرسالة بأن النمسة المانع الأصلي للإصلاحات في روما وأنها ضد كل مشروع اتحادى ونوهت بأن فرنسه إذا ما وقعت الحرب ستحارب في سبيل روما «أم الأمم» .

وكان نبأ حديث الامبراطور للسفير النمساوى وخطاب العرش قد أضرم النار في إيطاليا، فاشتدت الحماسة في نفوس أهلها وتضاعف نشاط جميع الوطنيين وانهارت جميع الشكوك التي كانت تساور النفوس في إخلاص كافور وترتاب في أى حلف أجنبي لا يثق بمساعدة الامبراطور، وأدرك الناس أن خطاب الملك قيد الملك في خوض غمار حرب قريبة الوقوع، وكان من قوة تأثيره أن انحاز بقية الجمهوريين إلى جانب الحكومة البيمونتية، ومع أن الجمعية القومية كانت قد أمالت قسماً كبيراً من الجمهوريين إلى جانبها، فإن فئة قوية من الجمهوريين كانت لا تزال في جنوه تتردد بين غاريبالدى ومازيني، فعزم مديجى ونيكومديكسو وبرتانى — وسيلعب هؤلاء الثلاثة دوراً خطيراً في المعركة القادمة — على مساعدة حكومة بيمونته مساعدة فعالة، أما مدينة جنوه التي كانت لا تزال منقسمة بين الكليريكين والجمهوريين الذين عارضوا سياسة كافور، فقد انتعى بها الأمر إلى تأييد كافور والملك؛ أما

مازبني فرفض بأن يؤيد سياسة التحالف مع فرنسة أو أية سياسة لا تستهدف الوحدة وظل في عزله .

ودلت حماسة المتطوعين على قوة الشعور القومي السكامن في النفوس ، وقد تفاهم كافور مع غاريبا لدى على تنظيم قوة من المتطوعين إلا أن السنة مضت دون الحصول على نتيجة مجدية . وبدأت حركة التطوع بهروب المجندين المباردين في شهر شباط ، وكان لقانون التجنيد الجديد الذي استغلته الجمعية القومية تأثير نافذ في هذا الهروب وعلى الرغم من جميع التدابير التي اتخذتها السلطات النمساوية فإنها لم تستطع أن تحول دونه . أما حكومة ييمونته فرحبت بالمهاجرين ودلت بذلك على أنها مقدمة على الحرب ، وامتدت حركة التطوع إلى الدول الأخرى وأصبح الذهاب إلى ييمونته محك الوطنية وأخذ الفتيان مع جميع أنحاء ايطالية .. يجتازون حدود ييمونته بالثلاث ، وكانت الحكومات الإيطالية ترى ذلك ثم لا تنبس ببنت شفه ، وكان هؤلاء المتطوعون يهرعون للتطوع آتين من مودينه وبارمه وطوسكانه والرومانى وارميريه والمارك ، حتى أن كتيبة من كتائب البابا هربت بأجمعها ، وكادت مناجم الحجارة في كرايه تخلو من العمال ، وكان المتطوعون في صقلية و نابولى يفرون بقوارب الصيد ، وقد بلغ عدد المتطوعين الذين انضموا إلى الجيش النظامى أو كتائب غاريبالدی قبل نشوب الحرب بين ٢٠ و ٢٥ ألف متطوع . وقابل غاريبالدی الملك وابلح له أن يختار ضباطه

وأصبح نشيد غاريبالدى الذى وضعه (نويحى موكاتى) نشيد
المارسيز فى إيطاليا . وسعى القوميون المعتدلون وقتئذ لخل الدوق
الكبير على الانحياز إلى جانب القضية الوطنية ، وكان الهدوء قد
خيم على طوسكانه منذ ألفوا الدستور سنة ١٨٥٢ ، ومن سنة ١٨٥٥
أخلت بقية القوة النمساوية البلاد ولم تكن الحكومة على درجة
من السوء بحيث يعم الاستياء فى البلد وينجم عنه ثورة أو
اضطراب ، ولم يستطع الأحرار الذين فقدوا الثقة فى أنفسهم أن
يكتسبوا ثقة الجماهير ، على أن الناس أخذوا تدريجاً ينشدون حياة
حرة أكثر من قبل ، ولا سيما بعد أن توغلت الجمعية القومية فى
البلاد وأسست فيها حزباً شعبياً قوياً يدعو لبيمونتته ويغتنب بمشاهدة
فيكتور عمانوئيل ملكاً على البلاد .

أما الأشراف الأحرار من أنصار الحكم الذاتى ، فكانوا يرون
أن الحيلولة دون الثورة تقضى بإقناع الدوق الكبير بالسير شوطاً
فى ميدان القومية الحرة . ومن بين هؤلاء ريكاسولى ، ولم يكن يثق
بآل بوربون ويعلم عن خبره بأنه من العبث أن يتوقع المرء إصلاحات
من أمراء طوسكانه . وكان يعتقد باستحالة بعث ايطالية إلا بطرد
النمساويين ، وعليه ينبغى أن توضع الثقة فى بيمونتته . وإذا اقتضى
الأمر فعلى بيمونتته أن تقود حرب ثورة شاملة فى سبيل استقلال
البلاد . ومع أن ريكاسولى باتفاق مع الأشراف الآخرين رفض
العمل بنصيحة كافور للمطالبة بالدستور خشية إثارة الحزازات

الهامدة بين القوميين فإنه وافق على أن يسمى لإيقاظ الدوق الكبير
باشتراكه في الحرب ، وكان البيان الذى صدر فى ١٥ - آذار بعنوان
(طوسكانه والنمسة) ، الذى تحمل ريكاسولى وأشراف مهمون
آخرون تبعه نشره يتضمن نقداً لاذعاً ومعقولا ضد النفوذ
النمساوى فى طوسكانه ، وجاء فى البيان المذكور ما يلى :

« لقد انتظرنا عشرة سنوات حتى تكمل بيمونته مهمتها
وتظهر للعالم بأن الإيطاليين يستحقون الحرية ، أما الآن فينبغى
لطوسكانه أن تقف بجانب بيمونته » ، وكان كافور قبل شهر
قد استطاع بواسطة الجمعية القومية إيجاد حركة سياسية فى فلورنسة
تدعو إلى عقد حلف عسكري مع تورينو وعرض مندوب كافور
على ريكاسولى باسم بيمونته حماية عرش الدوق الكبير إذا انضم
هذا بصورة رسمية إلى بيمونته ووافق على إناطة حكومة طوسكانه
بمعاهدة ريكاسولى فى الحرب التى سوف تنشب »

وبينما كان الطوسكانيون ينضمون إلى الأحرار كان الهياج
فى الشمال يخف نوعاً ما بيد أن رأتحة البارود فى بيمونته أخذت
تؤثر فى نفوس أشد الناس كرهاً للحرب ، واستمر جدل خفى
بين حزب بيمونته القديم وبين أنصار الوحدة فى الجمعية القومية .
وكان كل من هؤلاء يشك فيما إذا كانت صافويه تصبح فريسة
تضحى بها بيمونته ، وكانت أجوبة كافور فى المجلس النيابى
فى هذا الشأن لا تشفى غليلاً . وأخذ البعض من أعضاء الوزارة

نفسها يفكرون قلقين في الخطر العظيم الذي قد ينجم عن
المركة القادمة ، ولكن الأكثرية أيدت بسرور سياسة الحرب ؛
لأنها هي وحدها الكفيلة ببلوغ القسم الأول من الآمال . وقد وافقت
راضية على أن يتولى كافور تنفيذ تلك السياسة .

وإذا استثنينا رجال صافويه السياسيين ؛ فإن الجميع قد انفقوا
بصورة عامة على ترك الحزابات الحزبية . وقد عبر غاريبا لدى عن
الشعور العام بالعبارة التالية : (السكل يرغب في وجود دكتاتور
للحركة ؛ فلتزل الاحزاب وليكن كافور السكل في السكل) هكذا
نرى أن الأحرار قد فازوا في الداخل فوزاً عظيماً ، ولكن الصعوبات
الخارجية كانت ما تزال ماثلة فالناس كانوا يظنون أن الحلف
الافرنسي قد تم في كانون الثاني ، وهام الآن في شهر أذار ولم
تنجل آثاره ، من أجل ذلك أخذ الشك يخامر النفوس في عزم
الامبراطور على الوفاء بوعوده ، والواقع أن الامبراطور بعد
أن هدأت أعصابه أخذ يتأمل في الأخطار التي قد تنجم عن
خطئه الجريئة ، وعاد إلى تردد المعتقد وشغفه بالتسويق ولا سيما
لأن سياسة الحرب أهاجت جماعة من المعارضين له وأصبح محتملاً
أن يناوئه ، وأخذ الوزراء يقولون له الحرب تضر بالامبراطورية
حتى أن المجلس النيابي أعرب في شباط عن مخاوفه من تلك السياسة
وأيقن الامبراطور أن في مصير الحرب حياته ومماته ؛ ولذلك فإنه
لم يطمئن إلى أن مصير الحرب سيكون نصراً له . وقبل أن يستعد

جيشه استعداداً تاماً ، ولم تكن القوانين الدولية تسيع مهاجمة النمسة بحجة الدفاع عن المبادئ القومية ، فقد يؤدي ذلك إلى ظفر خصمه بمساعدة أوربا الأدبية وربما المادية أيضاً ، فلم يكن له مندوحة عن السعي لعقد حلف مع روسيه يضمن له حياداً ودياً ، ويحمل روسيه على حشد جيش على حدود غاليسية لتضطر النمسة إلى تقسيم قواتها ويهدد بروسيه فيما إذا أرادت أن تساعد النمسة ، وكان الامبراطور يشترك مع اللاجئين الهنغارين في حبك الدسائس باستمرار . ومما يجدر ذكره هنا أن لفرنسه في بلاد الجبل الأسود حينذاك نفوذ قوى بحيث يمكن أن تصبح قاعدة لإثارة السلاف على النمسيين .

ومع ذلك فإن الموانع كانت لا تزال عظيمة إذا ساعدت بوروسية النمسة ، وإذا ظهرت إنجليترة بمظهر المنتظر ، الأمر الذي قد يؤدي إلى الخصومة ، وكانت الوزارة الجديدة البروسية تعارض في عقد أى حلف مع النمسة . وجاء في نشرة صدرت في برلين وقتئذ وتعمزى إلى بسمارك ما يدل على عطف البروسيين على إيطالية بيد أن بلاطات الدول الألمانية كانت خاضعة للنمسة وترغب كثيراً في اجبار الديت (مجلس الاتحاد) على أن يتعصب للنمسة في النزاع باعتبار أن القضية تخص ألمانيه بأجمعها ، ولا ننكر هنا أن الرأي العام في ألمانيه كان ساخطاً على الصحافة الافرنسية وتهجمها المستمر ، ومع ذلك لو استطاع نابليون أن يضمن عطف إنجليترة

لاضطرت الوزرة البروسية إلى البقاء على الحياد ولكن وزارة دربي لم تشاطر الشعب البريطاني عطفه على إيطاليه إلا قليلا . وكانت تهدد كل من يخل بالسلم ، وكان مالسبورى وزير خارجية إنجلترا يجهل السياسية الإيطالية كل الجهل . ولا يكثر مطلقاً للآمال القومية الإيطالية ، لذلك أخذ يسعى لإصلاح البين بين فرنسه والنمسة وكانت سياسته ترمى إلى إزالة جميع الحجج التى تسوغ نشوب الحرب ، وكانت الحجج المذكورة فى نظره أربعة :

- ١ — الاحتلال الأجنبى لدويلات البابا . ٢ — الاستبداد الخيم على البلاد . ٣ — توتر العلاقات بين بيمونته والنمسة .
- ٤ — معاهدات سنة ١٨٤٧ التى عهدت للنمسة بقمع كل حركة فى الدوقيات ، فإذا ما استطاعت إنجلترا بتوسط ودى أن تتلافى هذه الأسباب أصبح اجتناب الحرب ممكنا ، وقد وافق الامبراطور على المنهج الانجليزى بتحفظ ، أما النمسة فظهر أنها مستعدة للتساهل وأرسلت إنجلترا اللورد (كولهى) ، إلى فينا بمهمة خاصة ولكن الامبراطور ظل على ترده المعبود ، وأخذ هو وكافور ينكران المرة تلو المرة أى تصميم على مهاجمة النمسة . ثم مال الامبراطور إلى الاقتناع بتأجيل المحادثات إلى أجل غير مسمى . وازداد تهديد المسانية وأخذ وزراء نابليون الذين كانوا يجهلون معاهدة ١٨ كانون الثانى يبذلون جهدهم لسك الامبراطور ، وفى ٥ آذار — ظهر مقال فى جريدة المونيور يؤكد بأن الامبراطور

غير ملازم بمساعدة بيمونته مالم تهاجم ، ولما اطلع فيكتور عمانوئيل على المقال المذكور أرسل إلى الإمبراطور كتاباً يهدد فيه باعتزال عرشه إذا تخلى الإمبراطور عنه ، ولما رأى الإمبراطور أن الأمور سوف تتعقد في تورينو أرسل إلى فيكتور عمانوئيل رسالة مطمئنة ، ورأى أخيراً أن أحسن وسيلة للتخلف من تعهداته لبيمونته أن يحيل الأمر على مؤتمر دولي ، وربما كان يتوقع أن يحمله ضغط الدول المعظمة على التخلص من تعهداته وأما إذا كانت الحرب لامناص منها فإنه يكون قد كسب الوقت لمقاتلة النمسة وهو على استمداد حسن . وبإيعاز منه طلبت روسية عقد المؤتمر في ١٨ آذار فوافق مالمسبورى على ذلك وحذت بروسية حذوه ، أما النمسة فوافقت بتحفظ زائد طالبة أن تسرح بيمونته قواتها والمتطوعين قبل انعقاد المؤتمر .

وحاولت إنجلترا الضغط على بيمونته لحملها على الموافقة وقالت إنها تعهد بالاشتراك مع فرنسة الوقوف في وجه أى هجوم نمسوى عليها ولكن كافور رفض الموافقة على تسريح القوات ، ووعد بالأيهاجم النمسة إذا كفت في المستقبل عن أى تجاوز يبد أنه كان يشعر بخطورة ما قد يولده عدم الاعتراف بالمؤتمر من استقرار أوربا كلها ومع ذلك فإنه اقتنع بأن تفاهم الدول الخمس في المؤتمر المذكور سيؤدى إلى القضاء على آماله ولن تبقى لديه أية وسيلة يتخذها لحمل النمسة على إعلان الحرب ؛ وعليه فإن بيمونته تصبح

منعزلة وعاجزة ثم خيل إليه أن المؤتمر إنما هو إدارة تأخذها
الامبراطور للتعمية واكتساب الوقت فرأى أن يشاطر الأمبراطور
الخداع ولكنه ظل يتردد بين الشك واليقين وينذر ويتوعد
الامبراطور بأنه سيضع البارود في النار إذا نكث الامبراطور
بوعده ، وقد استدعى الامبراطور كافور إليه وأخذ يسعى لهدئته
وربما حاول بكل جهده أن يحمل كافور على الموافقة على تصريح
الجنود ، والمعروف أن كافور هدد الامبراطور بتنزل الملك عن
عرشه وذهابه إلى أمريكا الجنوبية ونشر كتب الامبراطور
وتفاصيل محادثات بلومبير ، وقد أحس الامبراطور أنه أصبح
في قبضة هذا الرجل وأن في طوق كافور أن يثير سخط أوربا عليه
فبذل جهده لمراضاته وذهب كافور إلى تورينو واثقا بأن الحرب
واقعة لا محالة منها ، وأن النمسة لم توافق باديء بدء على عقد المؤتمر
إلا مرغمة ، إذ كانت ترتاب من النية التي دفعت إلى عقد المؤتمر وأنه
لا يقصد منه سوى إعطاء الوقت اللازم لفرنسة حتى تنهيا جيوشها .
وكانت الأمور جميعها في النمسة تتجه نحو إحباط سياسة السلم
ووضع مقاليد الأمور بيد أنصار الحرب ولا سيما بعد أن شجعت
إنجلترا بواسطة مندوبيها كولهى النمسة بأن وعدتها بمساعدتها
إذا تخرجت الأمور ، أما في ألمانيا فهناك أسباب وجيهة تنبئ
بأن الهياج فيها سيضطر بروسية والدول الصغيرة إلى عقد اتفاق
مع النمسة ، وكان الامبراطور فرنسو جوزيف والحزب العسكرى
(م ٢٤)

في النمسة يرغبان أشد الرغبة في معاقبة بيمونته البغيضة ويظنان
أنهما يستطيعان سحقها قبل وصول النجيدات الافرنسية إليها ،
ومع أن رئيس الوزراء النمسوى وعد رسمياً بأن لا يهاجم بيمونته
إلا أنه أصبح في موقف لا يستطيع معه أن يفي بوعد ، وظلت
النمسة مصرة على المطالبة بتسريح الجنود في بيمونته ورفضت
اشتراك مندوبي بيمونته في المؤتمر ، فسنحت بذلك لكافور الفرصة
إذ رفض تسريح الجنود أو الاشتراك في المؤتمر ما لم يكن في وضع الند
للند بالنسبة إلى الدول الأخرى ، وأدرك ما لسيوري أن هذا الرفض
ضربة قاضية على المشروع ، ثم دم اقتراحاً أصر عليه باعتباره آخر
تدبير ممكن لتسوية الأمور وهذا الاقتراح كانت فرنسا اقترحت
قبلاً وهو يقضى بتخفيض عدد الجيوش الثلاثة (الافرنسي والنمسوي
والبيمونتي) إلى الملاك السلمي ، فتظاهرت فرنسا بقبول الاقتراح
وطلبت من بيمونته رسمياً الموافقة عليه بيد أن كافور وفقاً لتجربته
الامبراطور الحفي أخذ يماطل ويقدم طلبات يعلم بأنها لا تقبل
بسهولة وفي الموعد الذي طالب مالمسيوري فيه بتسريح عام دعت
النمسة جنود الاحتياط إلى النمسة رغم أنها وافقت على التسريح .
وفي ٩ — نيسان عازمت الحكومة النمسوية على إرسال ائذار
إلى بيمونته تطلب إليها فيه تخفيض جيشها إلى ملك السلم وتسريح
المتطوعين وإلا فهي تعلن الحرب عليها ، وخشى الامبراطور ، لويس
نايليون أن يسحق الجيش النمسوي قبل وصول قواته إلى إيطاليا

ومخافة أن تسبق النمسة الحوادث فأرسل إلى تورينو برقية يطلب فيها إلى الحكومة تخفيض الجيش ، واستلم كافور هذه البرقية ليلة ١٨ - نيسان فأضاع رشده وقال إنه سوف ينتحز ثم أجاب والحزن يملأ قلبه أن ييمونته سوف تخضع لمشيئة أوربا ولكن ما أسرع ما انقلب حزنه إلى فرح لأن النمسة قبل أن تعلم بموافقة ييمونته على تسريح جيشها أرسلت الإنذار ووصل حامل كتاب رئيس الوزراء النمسوية إلى تورينو يطلب فيه إلى ييمونته أن تسرح جيشها بعد ثلاثة أيام وينذرهما بالزحف العاجل إذا هي رفضت ، وهكذا في الوقت الحرج الذي كاد كافور فيه أن يخفق إخفاقاً كلياً انفرجت أزمته وأصبح سيد الموقف بفضل خطأ خصمه المشؤوم . بهذا الإنذار ظهرت النمسة بمظهر المعتدية ثم إنها أصبحت البائدة بالخصومة ، ولقد قطعت النمسة علاقاتها السياسية بييمونته وتأكد كافور بأن فرنسا سوف تمد يد المساعدة إليه وإن عدوه فقد عطف أوربا السياسي أما نابليون فقد أعلى الحرب على النمسة رسمياً في ٢٩ نيسان ١٨٨٩

الفصل السادس والعشرون

حرب سنة ١٨٥٩

نيسان ، تموز — ١٨٥٩

لقد كان الإنذار الذي وجهته النمسة إلى بيمونته خطأ سياسياً إذ أغضب أصدقاءها وجعلها منعزلة ومتهمة من قبل الرأي العام الأوروبي ، وقد انقلب العطف الانجليزي إلى غضب وبذلت كل من الوزارتين الانجليزية في لندن والروسية في بطرسبرج نفوذها للحيلولة دون انضمام البلاطات الألمانية الصغيرة إلى النمسة ، أما بروسية فقد سخطت على عمل النمسة الأهوج وصممت بعزم على أن لا تنجرف إلى الحرب خلافاً لرغبتها وعقدت النية على أن لا تعير أهمية إلى أي قرار يتخذه مجلس الاتحاد يتعلق بإعلان الحرب .

ثم ما كاد الخبر يصل إلى باريس حتى تفجرت الحاسة الشعبية التي شملت فرنسه بأجمعها ما عدا الحزب الاكليريكي انتصاراً للقضية النبيلة التي — احتضنتها ، أما في بيمونته فتنفس الناس الصعداء لانتهاء الأزمة على هذا الشكل بعد أن توترت مدة طويلة . وقد عين مجلس الأمة الملك دكتاتوراً طول مدة الحرب ثم عطل جلساته ؛

وأخذ معظم الأشراف الذين يمتقنون السياسة القومية يقدمون أولادهم للدفاع عن شرف بيمونته ، ووقف كافور في المجلس النيابي خطيباً قبيل حله يقول : « ان هذا المجلس هو آخر مجلس بيمونتي ، أما المجلس القادم فسيكون مجلس المملكة الإيطالية » ، وهكذا نزلت الأمة إلى ساحة الوعى بعزم وثبات — وكان الناس يذكر كون خطورة العمل الذى أقدمت الحكومة عليه والذى مصيره إما إلى انكسار يؤدى إلى أن يحتل العدو تورينو وفى هذا القضاء على الحرية والاستقلال وأما إلى انتصار وهذا يتطلب تضحيات جسيمة وآلاماً لا حد لها ، فلم يكن بد للأمة من أن توطد القدم على اجتناب أى شىء يخل بالثقة والاعتماد على الملك والحكومة التى هيأت لإيطالية مثل هذه الفرصة السعيدة .

بدأت الحرب فى ٢٦ نيسان وشرعت القوات النمساوية بمد ثلاثة أيام باجتياز نهر تسينا فى سرعة استهدفت فيها سحق الجيش البيمونتي قبل وصول التفجعات الافرنسية ؛ مع أن وزير الحربية البيمونتي قد استعد منذ سنوات لدرء هذا الخطر فأسس معسكراً حصيناً فى مثلث (الكسندرية ، فاليزه ، وكساله) حيث احتشد ستون ألف جندي من الجيش البيمونتي ، وكانت قوة النمساويين تبلغ مائة وستين ألفاً ؛ فلو كان على رأسها قائد ماهر نشيط لسحق الجيش البيمونتي قبل مجيء القوات الافرنسية ودخل تورينو ، ولكن القائد النمساوى أضاع وقته فى حركات ثانوية ثم تقدم نحو

تورينو ، فوصلت مقدمته في ٨ أيار إلى بضعة فراسخ من العاصمة ، فاستعدت تورينو للدفاع مستميت اضطلع به حرسها القوي وثمانية آلاف من الافرنسيين الذين قدموا نجدة إليها ، وحمل الأعداء في الأرياف السلاح ونزل غاريبالدى ومتطوعته إلى الميدان . وبعد ثلاثة أسابيع من الشروع في الحركات تقدم الجيش الإفرنسى والبيموننتى نحو المواضع التى احتلتها القوات النمساوية . وفي ٣٠ أيار هاجمت القوات البيموننتية مواضع النمساويين وراء نهر (سيسيه) واستولت عليها قبل وصول القوات الافرنسية إليها وكان الملك فيكتور عمانوئيل يقود الهجوم بنفسه .

وبعد أن حارب غاريبالدى في أطراف البحيرات توجه نحو لمبارديه على رأس المتطوعين البالغ عددهم خمسة آلاف وكانوا خليطاً من جميع الطبقات منهم أشرف ومنهم فنانون وطلاب وأطباء وعمال وكلهم تركوا مساكنهم وضخوا براحتهم في سبيل الحرية ، وتوغل غاريبالدى في بلاد العدو في جرأة لتشجيع المباردين على الثورة بعيداً عن ساحة الحركات ومعتمداً على صداقة الأهلىن . وقد تغلب بثلاثة آلاف جندى على عدد يفوقه بثلاثة أمثاله ، وكانت إيطاليا تملق أخبار انتصارات غاريبالدى بفرح لا حد له ، وفي أوائل شهر حزيران تغلب الجيشان — الإفرنسى والبيموننتى على الجيش النمساوى فى معركة (ماجنتا) واضطره إلى الانسحاب إلى القلاع الأربع فافتتح بذلك طريق ميلانو أمام البيموننتيين والإفرنسيين ،

وما كاد خبر الانتصار يصل إلى ميلانو حتى أعلن المجلس البلدى اتحاد لمبارديه ببيمونته ودخل الامبراطور والملك فى ٨ - حزيران ميلانو باحتفال مهيب واستقبلها الأهليون بحماسة بلغت حد الجنون وقد أثر هذا الاستقبال فى نفس الامبراطور تأثيراً حسناً حتى قال فى بلاغ له ما يلى : « إنما يحارب جيشى أعداءكم ويحافظ على الأمن فى بلادكم ولن يكون عثرة فى سبيل إظهار رغباتكم المشروعة بحرية » . وكانت ماسة كرامة قد ثارت فى بدء الحرب وطردت طوسكانة أميرها وأعلنت ولاءها للملك وأعلن فيكتور عمانوئيل انضمام لمبارديه إلى بيمونته وهرب دوقا مودينه وبارمه مع حاميتيها النمسويتين فجددت الدولتان المذكورتان معاهدة الانضمام سنة ١٨٤٨ فى ١٣ حزيران ، وتركت الحامية النمسوية بولونية من ١١ - حزيران . وفى خلال أسبوع امتد لهيب الثورة إلى الرومانى والمارك وإلى قسم من أومبريه ومع أن قوات البابا استطاعت أن تسيطر على الموقف فى القطرين الأخيرين إلا أن الرومانى نادت بفكتور عمانوئيل دكتاتوراً عليها .

وفى ١٨ - حزيران وقف الجيش النمسوى وراء مينيجيو وتولى الامبراطور فرنسوا جوزيف قيادة الجيش الاممية بعد أن عزل القائد السابق وزحف الجيشان - الفرنسى والبيمونتى يتقدمهما غاريبالدى بمتطوعته وفيلق جبالدينى البيمونتى ؛ وفى ٢٤ - حزيران نشبت المعركة بهجوم الافرنسيين والبيمونتين

على مواضع النمساويين في (صولفرينو وسان مارينو) وبعد قتال استمر من الصباح إلى ساعة متأخرة من المساء تغلب الحليفان على عدوها فكانت خسارة الإفرنسيين في هذه المعركة الدامية اثني عشر ألفاً بين قتيل وجريح ، أما خسارة البيمونتيين فكانت أعظم من خسارة الإفرنسيين إذا قيست بنسبة عدد الجيشين . وكانت معركة صولفرينو بشيراً بسرعة انتهاء الحرب . ويتلخص الموقف الحربى بما يلى : كان الجيش النمساوى يستطيع المقاومة فى القلاع الأربع مدة طويلة ولكن عدوه إذا استطاع أن يضبط البندقية من البحر ، وإذا ما انتصر الحليفان عليه وراء بييجيو أصبحت طريق العاصمة فينا مفتوحة أمامهما وبذلك يتم تحرير ايطالية وقد يؤدى انتصارهما إلى انفصال هنغارية عن النمسه وانهيار النفوذ النمساوى فى ألمانيا كلها . هذا بالنسبة إلى النمسه ، أما بالنسبة إلى فرنسه فإن الحرب قد دلت الامبراطور لويس نابليون على عجز قاده فى القيادة وجعلته يشك فى قدرته العسكرية ولا سيما لأن النمسه رغم ارباك ماليتها وخزانتها الخاوية ، ورغم تآهب الهنغارين والسلاف للثورة عليها فلا تزال تسيطر على مصادر عسكرية جسيمة ، إذ لها فى اباله فنيسيه مائة وخمسون ألفاً من الجنود ، ومائة ألف آخر بين تريسته وفيينا ، فإذا انتهت المعركة القادمة على غير ما انتهت إليه سابقتهما فإن الامبراطور يقع فى مأزق لا مخرج له منه ويفقد بذلك السمعة التى كسبها من أجل ذلك ؛ ففترت

حماسته لإيطاليه فتوراً عظيماً ، وأخذ يتقدم بمرارة وعلى غير حق من عجز الأيالات المحررة من تجهيز قوات مدربة إلى ميدان القتال ورغم أن التقارير (وكانت كاذبة) تخبره بأن القرويين وراء منيجيو أعداء للحركة . ومن عوامل فتوره حنقه على الحوادث التي كانت تجري في إيطاليه الوسطى وكانت لا تهدد مشروعه الاتحادي فحسب بل تجره إلى نزاع مع الحزب الاكيريكي الافرنسي ، وهو غير راغب فيه ، ثم إن الرأي العام في طوسكانة ، والرومانى قد أعرب بعزم عن رغبته في الانضمام إلى ييمونته ، وكان مؤكداً أن تحذو أومبريه والمارك حذوها حالاً تسنح أقل فرصة إلى ذلك . إن الامبراطور كان يعلم بأن كافور يسمى بكل قوته إلى توحيد إيطاليه الشمالية وإيطاليه الوسطى بادماجها في مملكة ضخمة ، فإذا ما خرج الطليان من هذه الحرب منتصرين الانتصار كله أصبحت السيطرة عليهم عسيرة وفضلاً عن ذلك أنه أتى إلى إيطاليه معلناً بأنه لن يقدم على الإخلال بسلطة البابا ومع أن ميثاق بلومبير كان يقضى بمساعدة ييمونته في الاستيلاء على الرومانى فإن خشية جانب الاكيريكين جعلته يرغب أحياناً في التنصل من وعده ، ولقد قرر أخيراً أن يترك الرومانى تحتار المصير الذى ترضيه كما اعتزم أن يترك أومبريه والمارك للبابا وأن يحول دون انضمام طوسكانه إلى ييمونته .

وهناك عامل خطير هو الذى جعل الامبراطور يغير خططه
ويعيل إلى سياسة السلم ؛ ذلك هو موقف ألمانيا ، لقد شجعه موقف
بروسيه بادية الأمر على المضي فى طريقه ولا سيما بعد أن بلغت
حكومة برلين روسيه نصيحة مشفوعة بتهديد بأن لا تتحرك ،
فضلا عن أنها كانت تعلم أن انكسار النمسه من شأنه أن يفسح
لها مجال الزعامة فى ألمانية ؛ وإذا انتصرت فرنسه فإنها ستهاجم
بروسيه عاجلا أو آجلا . وحنق رأى العام فى ألمانية على بروسيه
واتهمها بالخيانة الوطنية فى وقوفها موقف المتفرج فى حرب يقهر
فيها العدو الأثرى العريق لألمانية دولة ألمانية ؛ فقررت الحكومة
البروسيه مخاصمة ذات وجهين تجاه المحاصرين ، فأعلنت النفير بعد
معركة ماجنتا وعرضت على النمسه وساطتها المسلحة إذا هى تخلت
لبروسيه عن رئاسة مجلس الاتحاد الألمانى وفسخت المعاهدة
المعقودة مع الدوقيات الإيطالية إرضاء للرأى العام الأوروبى .
وأعقبت ذلك بدعوة أربع فيالق من جيش الاتحاد للسلاح فى
٢٤ — حزيران وطلبت إلى روسيه وأنجلترا أن تتفقا وإياها .
وبدأت روسيه ترتاب من الحركات فى إيطاليا وأخذت تخشى
سريان عدوى الثورة فى هنفاريه إلى بلاد بولونيه لذلك رضيت بأن
تشارك فى الوساطة السلمية ، ومع أن الوزارة البروسية والت
مساعيها السلمية فإنها عادت بعد معركة مولفرينو فأخبرت النمسه

بوضوح بأن لا تتوقع مساعدة أجنبية مسلحة ، وحشدت في الوقت نفسه قواتها على نهر الرين الأمر الذي أفرغ الامبراطور إذ أدرك بأنه إذا رفض التوسط فقد تجتاز الجيوش البروسية حدود فرنسا غير المحمية ؛ ومن كل ما مر معنا يظهر أن جميع الأحوال كانت تحت الامبراطور على الرغبة في إنهاء الحرب ؛ إلا أنه لم يكن يريد أن تكون بروسيا هي البادية فلذلك أبرق إلى سفيره في لندن بعد معركة صولفرينو ببيعة أيام يطلب إليه أن يحس نبض الحكومة الانكليزية فيما إذا كانت ترغب في هدنة تكون أساساً للسلم وتقضى بترك لمارديه وبارمه لبيمونته وإدارة الروماني من قبل فكتور عمانوئيل على أن يبقى تحت سيادة البابا وتؤلف فينيسيه ومودينه دولة مستقلة يحكمها أرشيدوق نمساوي وتعاد طوسكانه للحكم الدوق الكبير ثم تؤلف جميع الدول الإيطالية اتحاداً برئاسة البابا .

وكانت وزارة دربي قد سقطت وخلفتها وزارة بالمرستون وتولى اللورد رسل وزارة الخارجية فيها وكان بالمرستون يستهدف في سياسته إيجاد مملكة إيطالية قوية تستطيع مقاومة النمسه وفرنسه معاً . وحدث أن تحدث السفير الافرنسي مع رسل وزير الخارجية حديثاً أخطأ السفير في فهمه وأرسل إلى الامبراطور يخبره بأن انجلترا توافق على التوسط بموجب الشروط التي اقترحها . وقبل أن يصل

جواب السفير إليه ارتأى — الامبراطور أن يفتح امبراطور
النمسه وأخذ في الوقت نفسه يتأهب للقتال فيما إذا رفض تكليفه
السخرى ثم اجتمع بكوسوت الوطني المنغاري ووعده بإيفاد قوة
عسكرية إلى هنغارية فيما إذا استمرت الحرب . وفي ٩ — تموز جاء
رسول نابليون يكلف فرنسوا جوزيف بالهدنة في الوقت الذي أدرك
أنه لا يستطيع انقاذ فينيسيه وأن بروسيه خذلتة ، وعلى أثر ذلك
اجتمع الامبراطوران في فيلافرنكه وكان نابليون الثالث في موقف
يستطيع فيه أن يملئ شروطه على عدوه ، وجرت المفاوضات بين
الاثنيين ورفض فرنسوا جوزيف تكليف نابليون بتشكيل مملكة
مستقلة يحكمها الارشيدوق ماكسمليان وعرض على نابليون أن
يترك له لمبارديه شريطة أن يسلمها هو إلى ييمونته ورغم موافقته
أن تنضم إالة فينيسيه إلى الاتحاد الإيطالي إلا أنه فضل الاستمرار
على الحرب على ترك هذه الإالة والقلاع الأربع وتم الاتفاق على أن
تمطى مملكة البورنه إلى بيمرنته بيد أنه نص في شروط الهدنة على
أن ترجع مودينته وطوسكانه إلى أميريهما وكذلك تعود الروماني
إلى البابا وتمهد الامبراطور بأن يساعد على تأسيس الاتحاد الإيطالي
برئاسة البابا .

وكان وقع خبر الهدنة على الطليان كصاعقة في جو ملبد بالغيوم
وقد عُنقدت دون أن يطلع عليها أحد حتى الملك فيكتور عمانوئيل

نفسه لم يعلم بها . ولما اطلع على هذه الخيانة قال حانقاً إنه سوف يستأنف القتال وحده ، إلا أنه أدرك عجزه ذلك ورضى بالتوقيع على المعاهدة المخزية . أما كافور فامتنع الخضوع للأمر الواقع وسارع حين اطلع على الخبر المشؤوم إلى المعسكر فضغط على الملك وأعاد الضغط عليه لكيلا لا يقبل الشروط ولما رفض الملك تكليفه وجه إليه كلاماً لاذعاً ، خرج فيه عن حدود الاحترام .

الفصل السابع والعشرون

بعد فيلا فرنكه

تموز أيلول — ١٨٥٩

أثارت أخبار فيلا فرنكه استياء عاماً في إيطاليا ، فكان الحرب قد نشبت للأشياء وكأنما ذهبت جميع الأموال التي أنفقت والنفوس التي أزهقت والجهود التي بذلت سدى ، ولم تكسب بيمونته من كل هذا الغرم إلا المبارديه فقط ، أما فينيسيه وطوسكانه والرومان فلم تكد تتنفس الصعداء بضعة أسابيع حتى رأت جميع آمالها تنهار إذ خانها حليفها وتآمرت أوروبا كلها ماعدا إنجلترا ضدها . وأخذ الطليان يجهرزون بسخطهم على الامبراطور الذي وهن عزيمته في الساعة الحاسمة وقد استقبلته ميلانو وتورينو حين عودته بإعراض وصمت بليغين وهما اللتان استقبلتا منذ أسابيع بحماسة فائقة ، وعلقت صور أورسيني في أوجه الدكاكين ؛ وقد شاع أن الملك أخبر الامبراطور بأنه لن يوقع على المعاهدة . أما كافور فقدم استقالته وقال لكوسوت ذات مرة « لقد أهانتني الامبراطور أمام ملكي . . . لن يتم الصلح . . . وإذا اقتضى

الأمر فسأصافح ديللا مرجريتا بيد ومازيني باليد الأخرى
وسأغدو ثورياً متآمراً » ولما أفاق الطليان من ذهولهم وجدوا
في نفوسهم من القوة ما يستطيعون بها المقاومة ، فكاد الشعب
بأجمعه يتآمر لإجباط مشاريع الملوك العظام والعمل في سبيل
سلامته وحرية واستقلاله وهنا يجدر بنا أن نسجل ما حدث في
أقطار ايطاليا في هذه الفترة ونبدأ بطوسكانه فنقول :

لقد كان الدوق الكبير قبل الحرب مصراً على التمسك بسياسة
الحياة فرفض تلبية طلب النسبة بإرسال كتيبة إليها وقد طلب إليه
مندوب كافور ، بون كومباني ، الدخول في الحلف وأرادت
حكومتا فرنسا وبيمونتة إغراءه على قبول هذا الطلب بالإعراب
عن استعدادها لحماية عرشه وكان بعض الأشراف في طوسكانه
لا يزالون يقولون بوجود حكم ذاتي في طوسكانه ويرغبون في إنقاذ
آل لورين ويرون أن تحقيق ذلك يكون بتحالف الدوق مع بيمونتة .
ثم إن الدومقراطيين أنفسهم كانوا على استعداد للتساهل فيما إذا
وافق الدوق الكبير على شروط كافور بيد أن الثوبولد بقي متصلباً
في رأيه ولم يكثر لنصائح الأشراف المخلصين ولم يلتفت إلى
إرشادات وزرائه ولم يقم وزناً لنفور جيشه منه وقد جعل رفضه
الحلف الثورة أمراً لا مناص منه ، فاتفق الحزبان القوميان ضده
وقرر تأليف حكومة تكون حليفة لبيمونتة ، وبلغ من تضامن
الأحزاب في هذا الشأن أن أنصار مازاريني بأن يتولى الأشراف

الأحرار قيادة الحركة وقد اضطروهم عناد الدوق الكبير إلى أن يبدؤوا بالعمل تَوّاً ، وأخذ الشعب والجيش يهددان بالثورة وصمم الأشراف بتحريض من كافور على القيام بمظاهرة تجبر الدوق الكبير على اختيار أحد الحالتين : « الحلف مع ييموته أو التنازل عن العرش مؤقتاً » وفي صباح ٢٧ - نيسان تأكد الدوق الكبير من خيانة الجنود بمطالباتهم إياه السماح لهم برفع العلم الثلث الألوان ولما حاول ابنه تحريض المدفعية الموجودة في قصر على التآهب لقصف المدينة أجابه الضباط بالرفض البات ، فما كان من الدوق الكبير إلا أن أنكر موقفه السابق وعرض على المتظاهرين منح الدستور وعقد الحلف مع ييموته ولكن المتظاهرين رفضوا الموافقة على هذا المنح وطلبوا إليه التنازل عن العرش فاضطر في مساء ذلك اليوم إلى الهرب من فلورنسه .

وحذت مدن طوسكانة الأخرى حذو فلورنسه فأرسلت ٢١٧ ناحية من ٢٤٦ ناحية موافقتها العاجلة على ماتم وتأسست على أثر ذلك حكومة وقتية نادت بفكتور عما نوئيل دكتاتوراً عسكرياً طول مدة الحرب ، وقد خشي كافور أن يمانع نابليون في ذلك لأنه كان ينوي أن ينصب أميراً افرنسياً على عرش مملكة إيطاليا الوسطى إذا استطاع أن يقوم بذلك من دون أن يجلب سخط أوروبا ، ولكي يحول الامبراطور دون أى حركة جمهورية أرسل فيلقه الخامس إلى طوسكانة تحت إمرة الأمير نابليون ليمهد سبيل

ارتقائه العرش ولكن كافور توفق إلى إقناع الامبراطور بالتخلي عن نيته بشأن عرش طوسكانه ، ولكن الامبراطور لم يكن جاداً في هذا التخلي ، وإنما أدرك أن مشروعه يثير شكوك أوروبا نحوه . أما الأمير نابليون فقد جس نبض فلورنسه بعد وصوله إليها واقتنع بأنه ليس ثمة أمل له في النجاح . وقد تأثر بالاستقبال الحافل الذي استقبل به وغدا المدافع الفيور عن فكرة إلحاق طوسكانه ببيمونته : وبذلك دلت الأمور على أن البلاد سائرة نحو الوحدة ، وقد عين بون كومباني مندوب كافور مندوبا ساميا عن بيمونته في طوسكانه . وكانت وزارته تتألف خصيصاً من الأشراف أى أنصار الحكم الذاتي ربما كانوا يتوقعون عودة آل لورين ، الا أن وطنيتهم جعلتهم لا يتخلون عن كومباني ، وأصبح ريكاسولى الذى تولى وزارة الداخلية فيها المهيمن على الوزارة . وقد امتلأت نفسه غبطة بمشاهدة الرأى العام يشتد ميله نحو الانضمام إلى بيمونته والخروج بطوسكانه من عزلتها المخيفة ، وأرسل الطوسكانيون بعد أول انتصار فى باليستره بياناً يعلنون فيه فيكتور عمانوئيل ملكاً على إيطاليا ووقع (ريكاسولى) وزميله (سالفا جنولى) عليه رغم غضب المتحزبين لفكرة الحكم الذاتى ، بيد أنه حينما أخذ كافور يشجع الدعاية الانضمامية بشدة خشية أن يعود الإمبراطور إلى مشاريعه القديمة احتج ريكاسولى على هذه الدعاية التى ترمى إلى القضاء على الامتيازات الطوسكانية المحلية لأن ريكاسولى (٢٥ م)

لم يكن يستهدف الاندماج الكلى ببيمونتته حتى تصبح ايالة محرومة من تشريعها الاجتماعى الأكثر رقياً منه فى الدول الأخرى ومن تقدمها فى الناحيتين الثقافية والفنية ، بل كان يرغب فى أن تصبح طوسكانه عضواً متساوياً للأعضاء الذين تتألف منهم مملكة إيطاليا العظيمة . وأخذ أمثال كابوني الذين ظلوا مترددين طويلاً بين شعورهم القومى وتعلقهم بالمرف والاستقلال الطوسكانى يجهرون برغبتهم فى الوحدة مع بيمونتته بشروط وعلى ألا يكون هناك اندماج تام . أما أنصار الحكم الذاتى الاقحاح فكانوا يريدون أن يحولوا دون تأسيس دولة نابليونية مهما كلفهم الأمر ، فكان الانضمام إلى بيمونتته وحده يقيهم شر ملكية الأمير نابليون وجمهورية مازينى معاً ، فأبرقت الوزارة بهذا النبأ وعلى أثر إعلان ميلانو الانضمام بأسبوع واحد قررت الوزارة بالإجماع سيادة فيكتور عمانوئيل على البلاد ، وارتأى كافور أن سبيل إقناع الإمبراطور بالرضاء عن انضمام طوسكانه لبيمونتته إنما يكون بالبرهنة على أن الطوسكانيين يريدون الانضمام إلى بيمونتته بالإجماع . وقد تجلّى ذلك الاجماع بورود طلبات الانضمام المختومة من ٢٢٥ ناحية من مجموع ٢٤٦ وهذه النسبة تمثل أحد عشر من اثنى عشر من نفوس الأهلىن .

وبينما كانت الحركة القومية فى طوسكانه تعم وتتقوى أسبوعياً ، كانت الأمور فى دول البابا تسير فى صموبة وعسر وقد حذت

جميع مدن الرومانى حذو مدينة بولونية وفى أسبوع واحد امتدت الثورة إلى جميع أنحاء المارك إلى أنكونة ، وفى أوميريه إلى (بيروزه) . وبعد أن أصدر البابا قرار تحريم بحق القائمين بالحركة استعد للقضاء عليها بالقوة فهاجم الجنود السويسريون مدينة بيروزه فى ٢٠ — حزيران ، ومع أن أحسن رجال المدينة كانوا قد ذهبوا للقتال فى لبارديه ولم يكن بيد المدافعين عنها سوى بضعة مئات من البنادق القديمة فإن الذين دافعوا عنها استماتوا فى دفاعهم . وأمرت حكومة البابا قائد السويسريين بأن يستعمل أقصى الشدة لتصبح عبرة لغيرها ، فأباح القائد لجنوده نهب المدينة وانتهكت حرمت الكنائس وأحرقت الدور ودكت دكا ، وقتل النساء والشيوخ ، وقد كان البابا بقدس هؤلاء القساة على فظائعهم وأعد وساماً لتخليد هذا العمل الشنيع ، وأدى سقوط بيروزه إلى خضوع أوميريه والمارك فأعادت حكومة البابا نفوذها إلى حدود الرومانى . ولم تستطع القوات السويسرية التقدم أكثر من ذلك لأن بعض الجنود البيمونتيية كانوا فى بولونية وأخذ المتطوعون يحترقون لدفع أى عدوان .

وكان أول عمل قامت به الجمعية (لاجونتتا) الوقتية فى الرومانى إعلانها قبول دكتاتورية فيكتور عمانوئيل من دون قيد ولم يكن فى الرومانى من أنصار الحكم الذاتى سوى أفراد قلائل ، وعلى أثر ذلك نصبت حكومة تورينو دازجليو مندوباً سامياً عن

الملك ؛ بيد أن الامبراطور نابليون عاد فقابل هذا العمل بالرفض مع أنه صرح إلى أحد أعضاء جمعية جونتاً بأنه لن يوافق على إعادة سلطة البابا إلى بولونيه إلا أنه كان من جهة أخرى يخشى معارضة الحزب الاكليريكي في فرنسه ، وكان عازماً على سحب جنوده من روما حالما يتم طرد النمساويين من شبه الجزيرة . وكان نابليون دون ريب لا يزال يحتفظ بأمل ضعيف في حل القضية بإقناع البابا عن التخلي في طيبة خاطر عن بعض أجزاء دويلاته وأن ينضم إلى مملكة إيطاليا الوسطى . وكان الأحرار الافرنسيون يتمزقون غضباً لمظالم بيروزه . ويظهر أن الإمبراطور كان قد أفهم كافور قبل فيلاً فرنكه بأنه يساعده على أخذ الروماني ولعله اشترط عليه بأن يمارس البابا حق سيادته عليها وبعد مرور بضعة أيام على هذا الحديث وصل دازجيلو إلى بولونيه مزوداً بصلاحيات جعلت محدودة وذلك عملاً برغبات الامبراطور ، بيد أنه ضرب بالتعليمات التي أصدرت إليه عرض الحائط وقبض على زمام الحكومة بالفعل وكان كافور قد تخلى في ذلك الوقت عن خطته بشأن أوميريه فأخذ يشجع أهل المارك على الثورة بهمة .

يتضح لنا مما مضى أن الرغبة في الوحدة قبل فيلاً فرنكه قد اشتدت في جميع أنحاء إيطاليا ، وكان اكتشاف المؤامرة التي دبرت في قصر الدوق الكبير ووجود ابنه في الجيش النمساوي في معركة صولفرينو قد أزالا اعتبار آل لورين في نظر أشد

المخلصين لهم . كما أن حادثة يروزه حملت أهل الرومانى على التسليح
لمقاومة متطوعة البابا مهما كلفهم الأمر . وأخذت الرغبة فى
تأسيس مملكة قوية تحتوى جميع أقسام إيطاليا الشمالية والوسطى
تقوى وتشتد باستمرار فى نفوس الجماعات القومية على اختلاف
نزعاتها ؛ على أن بعض الناس كانوا لا يزالون يميلون إلى الحكم الذاتى
وأمثال كابونى وريدونى قد وافقوا على الانضمام مكرهين لأنهم
لم يجدوا حلاً آخر غير الانضمام ، وجاءت حادثة فيلا فرنكة فعدلت
الآراء إذ ظهر أن الاتحاد أمر يصعب إنجازه مادام النمسيون فى
فنيسيه ومادام جيش البابا يهدد مقاطعة لا كاثوليكة فى الرومانى
ودوقه مودينه يتحين الفرصة لاجتياز نهر بو بجنوده ، فالإتحاد فى
حالة وجود هذه العوامل سيظل حبراً على ورق أو ساحة نزاع بين
المبادئ سيجر إلى الحرب عاجلاً أو آجلاً ، وأصبحت فكرة
الوحدة عقيدة ولما حاول رتازى الذى تولى رئاسة الوزارة بعد
كافور أن ينفذ شروط المعاهدة ، وجد نفسه أمام اجتماع شعبى
عام وتأملى شامل للقضاء على هذه المعاهدات والحيلولة دون تنفيذ
شروطها . ووجد الطليان فى الوسط زعيمين من الطراز الذى
يحتاجون إليه رجلين عنيدتين ، صلبين ، حازمين ، لا يخافان
المسئولية ولا تؤثر فيهما المخاطر والدسائس ولا التملق ولا الوعيد .
أما الأول فهو لافارنيا ، وقد برهن كافور عن نظر ثاقب بعيد بإرسال
زميله وصديقه لافارنيا إلى مودينه لما ثارت بعد معركة ماجنتا ،

وكان لافارينا طبيباً من أهل رافينه وقد اشترك في عدة مؤامرات ، وبعد أن ظل في المنفى مدة قصيرة عاد بعد العفو الذي أعلنه البابا بيوس ولعب دوراً خطيراً بين الأحرار المعتدلين في أيلته ، والتجأ سنة ١٨٤٩ الى بيمونته ولعله غداً أول نصير لكافور في مجلس الأمة ، وكان لافارينا رجلاً شجاعاً نزيهاً متحملاً بإرادة قوية وعزيمة ماضية وقد جعلته معاهدة فيلا فرنكه لا يعبأ بأوامر فرنسه وبتهديدات النمساويين .

أما الثماني فكان ريكاسولى زعيم طوسكانه وهو أجمل وجوه تاريخ إيطاليا الحديثة ، كان بتيانو ريكاسولى من الأشراف الأحرار الذين أسسوا جمعية جورج فيس وتزعموا حركة الدستور في طوسكانه سنة ١٨٤٧ — ١٨٤٨ الى أن تسلم زمام الحكم الديموقراطيون ؛ وأصبح منذ سنة ١٨٥٦ شديد التحزب للوحدة مؤمناً بأن إيطاليا سوف تنال حريتها بيدها ؛ وكان يكره الاعتماد على سياسة الأجنبي والاستعانة به ومع أنه لم يرتح للحلف الفرنسى إلا أنه اعتزم أن يجعل طوسكانه مثلاً في الضبط والتضحية في سبيل الوحدة إلا أنه لم يكن يرغب قط في أن تصبح إيطاليا الجديدة بيمونته مكبره ، ولم يوافق على أن تتخلى طوسكانه عن حضارتها القديمة ومؤسساتها الإنسانية . وكان ريكاسولى يمت إلى أمرة عريقة في زعامتها أوتوقراطياً بكل معنى الكلمة وجريئاً قوى الاعتداد بنفسه وكان ملاكاً خشن الطباع نشيطاً يعامل مزارعيه بقسوة شديدة في سبيل

تعدنيهم وإغنائهم وكان يأنف من الانحناء أمام الملك أو الشعب ؛
أما من حيث العقيدة السياسية فكان ديمقراطياً صادقاً يكره
البلاطات كره الجمهوريين لها ويحتقر الاكليروس احتقاراً ويدعو
إلى أن تخضع الكنيسة للدولة ويمقت البلاط البابوي أشد المقت .
وحلمت في معاهدة فيلا فرنكه أبرقت حكومة تورينو إلى
مندوبيها في بولونيه وفلورنسه ومودينه وبارمه طالبة إليهم أن
يتركوا مناصبهم وأن يعودوا ، غير أن كافور قد عقد النية على أن
لا يتخلى عن منصبه (كان يتولى إذ ذاك عدة وزارات) قبل أن
يبدل آخر جهد لإنقاذ مشروعه فأبرق لفارينا (السلاح والمال)
وأوعز إلى دازجليو بأن يستمر على عمله من دون أن يهتم بمعاهدة
فيلا فرنكه وأوصى ريكاسولى بأن يبقى في منصبه وأن يدعو إلى عقد
مجلس تمثيل ، وحثهم الملك على أن يكونوا أهل مضاء وعزيمة . وكان
المندوبون من الرجال الذين خلقوا لاقتحام العقبات وتذليل المصاعب
فانسحب بون كومباني وترك منصبه لريكاسولى رجل الساعة . أما
دازجليو فرفض العودة قبل أن يقيم حكومة مستقرة وقبل أن
يجهز قوة من المتطوعين لحماية الحدود ضد الجنود السويسريين في
أوميريه ، أما لا فارينا فقد ذهب إلى مودينه بلا جنود ولا مال
تاركا مهمته التمثيلية ليصبح في اليوم التالي دكتاتوراً على مودينه
أولاً وعلى بارمه ثانياً ، وقد قال « سأموت قبل أن أطرد » ،
وأرق إلى ريكاسولى يقول « أنا صاحب الشعب . بالاتحاد في العمل

نسال الظفر وإذا اقتضت الأمور الجرأة فأنالها » ، ولو تخلى
المدوبون عن مناصبهم لا تقطع الرجاء في إيطاليه الوسطى ؛ وكان
الشعب يسير وراءهم كالبناء المرصوص حتى أن لافارينا قال :
« إن إيطاليه لم توقع على معاهدة فيلا فرنسكه » . ولم يحدث أى
اختلاف فى رأى بين الأحرار والمحافظين فى موضوع المعاهدة
واستنكارها ؛ فبينما كان ولنى الديموقراطى وصاحب المصرف فى
فلورنسه يجهز حرساً قومياً راح ريد ولنى الذى ظل إلى تلك الساعة
متردداً يطالب باستئناف القتال ؛ وهكذا لم يكن فى إيطاليه الا
شعب مقدم يقوده رجال لا ترهبهم المخاطر قد صمموا على أن
لا يتركوا الميدان .

وكانت وزارة تورينو اذ ذاك فاقدة الشجاعة تعوزها العقيدة
والجرأة ، قد ارتضت أن تتخلى عن الأهداف التى جاهد الشعب
لبلوغها ، وحدت الدويلات الأربع صفوفها حالا للدفاع عن نفسها
ولا سيما لأن جنود البابا كانوا على أهبة اجتياز الرومانى من حين
لآخر وكان محتملا أن يعاونهم مدد من نابولى وأسبانيه كما أن
دوق مودينه قد يستطيع التقدم من فينسيه ثم يحتاز نهر بو ويهدد
فلورنسه ، وكان ثمانية آلاف من المتطوعين فى لا كاثوليكة على
حدود أوميريه . وقد استبقى لافارينا بالاتفاق مع ريكاسولى القوات
الطوسكانية التى عادت من ميدان القتال لتقوم بحراسة خط بو .
ويأبى من دازجليو دعا إلى إقامة حلف عسكرى بين الدويلات

الأربع وتجنيد جيش لا تقل قوته عن خمسة وعشرين ألفاً، وقد تم التحالف بين مودينه وطوسكانه والرومانى ثم انضم إلى هذا الحلف أخيراً بارمه . وأوفدت حكومة تورينو بعد تردد طويل الجنرال (فانتي) أقدر قادة ييمونته لتنظيم جيش الحلف وجعلت غاربيالدى معاوناً له وبذلك أصبحت إيطاليا الوسطى فى مأمن من الاستيلاء عليها . ورأى نابليون استحالة عودة الأمور إلى حالتها السابقة من دون استخدام السلاح كما أدرك أن طوسكانه نفسها لا ترغب فى عودة الدوق الكبير إليها ، وقد رفض الإمبراطور فى أول الأمر كل تدخل أجنبي فى شؤون إيطاليا وفرح جداً بالحصول على حجة تساعد على التخلص من الوعد الذى أعطاه للنمسه وارتأى عقد مؤتمر من الدول العظيمة فيحتمى وراء حكمه ويتخلص من عهوده المتناقضة واستند إلى احتجاج رسل الشديده وأعلن أنه لا يوافق على تدخل النمسه فى شؤون طوسكانه والرومانى . وترك فى لمبارديه خمسين ألفاً من جنوده وأيقن أن التهديد يكفى لإيقاف النمسه عند حدها وبعد أن اطمأنت حكومات الوسط إلى نيات الإمبراطور شعرت بأن الثبات والشجاعة وحدها الكفيلان يبلوغ آمالها وما دام الإمبراطور يرفض أن يحميها وما دامت بمعزل عن تدخل النمسه فإنها أصبحت قابضة على مصيرها بيدها ، وقررت قبل ذلك دعوة المجالس التمثيلية فى كل من الدويلات وجرى انتخاب عام لهذه المجالس ، فاز الأحرار فيها فى جميع

الأنحاء وقد قررت هذه المجالس بالاجماع سقوط الحكومات القديمة وإلحاق الدويلات الجديدة بمملكة فيكتور عمانيل . وأمام هذا الاجماع الرائع تلاشت النعرات الحزبية وأظهرت إيطاليا الوسطى من التساند ما جلب إعجاب أوروبا .

فلم يبق الآن أن نرقب ماتتخذة حكومة بيمونته من اجراءات وتدابير وكان معلوما أن وزارة رتازى لم تؤلف إلا لمدة موقته ريثما يعود كافور للحكم وكانت مهمة هذه الوزارة احترام أحكام معاهدة فيلا فرنكه والأخذ بتعليمات الامبراطور إلى حد ما ، ومهما كانت الفكرة البيمونتنية الضيقة الحدود فان رئيسها رتازى لم يكن يخلو من بعض إيمان بالوحدة ؛ فلم يكن فى مقدور هذه الوزارة أن تتخلى تماماً عن القوميين . وكان الملك لا يزال على اتصال ودى بناربيالدى مما دل على أنه يرغب فى استخدامه عند اللزمات ويظهر أن مخاوفه بشأن ممتلكات البابا قد زالت حين لمس شدة الشعور الساخط الذى ولدته معاهدة فيلا فرنكه ، أما وزراؤه فكانوا لا يعبأون بلغعات البابا وإنما كانوا لا يجرؤون على إغضاب الامبراطور ويدركون صعوبة التخلص من هذا الحليف الإفرنسى الذى غل إرادتهم والذى سيطالب فى حالة انضمام إيطاليا الوسطى إلى بيمونته بصافويه تعويضاً له ، يتهدد بيمونته ويجعلها وجهاً لوجه أمام النمسه إذا ماغضب الامبراطور وسحب جنوده وجماعته وفسح المجال لتدخل النمسه . ومع أن رتازى كان راضياً بالتخلى

عن صافويه إذا استطاع إنقاذ نيس إلا أن زملاءه لم يجروا على الاضطلاع بهذا العبء ومواجهة ما سيولده من التذمر العام إذ هم ضحوا بمهد الأسرة المالكة وبوطن غاريبالدى ؛ وقد رفضوا فى أول الأمر الموافقة على مبدأ الاتحاد آمليين أن يظفروا بموافقة الدول الأوروبية فى المؤتمر المنوى عقده على قرار الدويلات بشأن الانضمام إلى ييمونته وقبل أن تصل وفود الدويلات الأربع إلى تورينو رأى الوزراء أن يجسوا نبض نابليون .

وكانت سياسة الإمبراطور تقضى بمعارضة ييمونته فى ضم الرومانى وطوسكانه إليها لا خوفاً من استياء الكاثوليك الافرنسيين فحسب ؛ وإنما كانت سياسة فرنسه التقليدية تعارض تأسيس مملكة إيطالية قوية كى لا تنضم يوماً ما إلى حلف ضد فرنسه . وكان الإمبراطور فى الوقت ذاته يأمل فى إقناع البابا بيوس بمنح الحكم الذاتى إلى الرومانى على أن يحتفظ البابا بسيادته عليها وبذلك يرضى ، القوميين ثم إنه كان يعارض كل المعارضة فى إلحاق طوسكانه بييمونته لعلمه بأن اتساع مملكة فيكتور عمانوئيل إلى ماوراء جبال الأينين سيؤدى عاجلاً أو آجلاً إلى وحدة إيطالية وبذلك تتعقد القضية الرومانية وترداد خطورة على أن سير الأمور كان يتوقف إلى حد بعيد على موقف إنجلترا وعلى تصرف وتدير الطليان أنفسهم . وقد تمسك الإمبراطور الآن بمشروعه الاتحادى لدفع

احتمال الوحدة ، والانضمام . ولما وردت إليه رسالة تورينو تستفتيه
رأيه في الانضمام عارض المشروع فوراً؛ فلما جاء وفد طوسكانه
في ٣ أيلول إلى ييمونته قررت الحكومة عدم الموافقة على الانضمام
وطلبت إلى الملك أن يتهرب في جوابه غير أن الملك في محادثة
خصوصية مع الوفود شجعهم على المضي في طريقهم كأنما الوحدة
أمر لا ريب فيه .

الفصل الثامن والعشرون

انضمام الوسط

أيلول ١٨٥٩ : نيسان ١٨٦٠

وطبيعي ألا ترتاح إيطاليا الوسطى إلى جواب الملك ولم تقبل به إلا بعد تأكيد من الملك ووعد من كافور بأن الوقت لا يساعد على العمل أكثر من ذلك ، وكان على حكومة تورينو أن تنظر بعين الاعتبار الصعوبات السياسية التي تواجهها وأن تحول دون قطع صلاتها بالامبراطور ولكن ريكاسولي وفاريني استطاعا أن يهملتا تعليماتها من دون خوف وأن يفسرا حديث الملك تفسيراً بعيد المدى وأن يصرحا بأن فكتور عمانوئيل أصبح ملكاً على طوسكانه واستناداً إلى رضائه الخاص ، وقد بلغ جيش الحلف ذلك الحين خمسة وأربعين ألف جندي وبرهنت طوسكانه عن تحملها بصفات الصبر والثبات الفائقة ، ولم تجد جميع الدسائس التي حاكها أنصار الأمراء المخلوعين ، وسارت حكومتا ريكاسولي وفاريني بلا عائق وأصبح ريكاسولي دكتاتوراً بالفعل وقد تملك قلوب الشعب بثباته وصراحته وامتناعه عن الأخذ بسياسة التستر والمراوغة ، وقام فاريني بالإصلاحات في مودينة وبارمه في همة ونشاط

عظيمين وقد طهرا الإدارة من مفسادها وطردها اليسوعيين .
أما في بولونية قد خلف رواز جليو (سيريماني) قائد ثورة ليفورنه
سنة ١٨٤٨ .

وكانت سياسة فاريني ترمي إلى جعل دويلات الوسط خاضعة
إلى حد ما لحكومة مشتركة وجعل قوانينها وقوانين ييمونته
واحدة حتى إذا ما استلم فيكتور عمانوئيل زمام الحكم وجد أن
الاندماج بين الأيالات القديمة والجديدة قد تم فعلا ، وقد ارتأى
أن يأخذ الحلف العسكري الموجود بسياسة دولة واحدة من أعضائه
فيدل ذلك على تضامن الحكومات الأربع ويكون حائلا دون
اختلافها وذلك من دون أن تلغى الحكومات الموجودة . وقد أيدت
حكومة بولونية هذا المشروع أما ريكاسولى فاعترض عليه خشية
أن يشجع ذلك أنصار وجود مملكة في إيطاليا الوسطى ، ولاح
له كما لاح لكافور أن الحلف المذكور يكون بذلك عثرة في سبيل
الوحدة مع ييمونته بدلا من مساعدتها ، أما في طوسكانه فحمل
الديمقراطيون مع بعض أنصار الوزارة وبتشجيع من رتازى على
جعل المؤسسات المحلية على طراز المؤسسات البيموننتية ، وقام
ريكاسولى بأعمال تقديمية عظيمة في الصناعة والإدارة ، وسعى
ريدولفى لجعل فلورنسة مركزاً للثقافة والفنون في المملكة الجديدة .
وكانت الوحدة بنظر ريكاسولى لا تطلب قبول القوانين والمؤسسات
البيموننتية ، ومع ذلك فقد وافق على قبول نظام العملة والنقد

البيمونتي وعلى إلغاء الجمارك وجوازات السفر وتأسيس اتحاد
بريدى على أن هذه الأمور كلها كانت بنظر ريكاسولى قليلة الأهمية
إذا قورنت بقضية الانضمام . ومهما كان التفاوت فى الآراء بين
ريكاسولى وفارينى فإنهما كانا على اتفاق تام فى رفض الخضوع
لأى ضغط أجنبى رفضاً باتاً ولم يكن المرء يحتاج إلى كثير من
الفراسة حتى يدرك بأن الإمبراطور سيعود فيلجأ إليهما .

وقد تعدلت آراء الإمبراطور بشأن طوسكانه بسرعة فأرسل
فى نهاية ايلول رسالة يلح فيها على الحكومات الأربع بصيانة
استقلالها بثبات وفى اليوم التالى لورود هذه الرسالة تفاهت الحكومات
المذكورة فيما بينها على دعوة المجالس التمثيلية وتعيين الأمير
(كايجنانو) بن عم الملك فيكتور عمانوئيل وصياً إذا لم يوافق الملك
على أن يتولى الملك بصورة مباشرة ، وقد رفع العلم البيمونتي فوق
سراى فيكيو فى فلورنسة فى اليوم الأخير من ايلول ، ولكن
الإمبراطور كان بعيداً كل البعد عن الموافقة على الانضمام ولم تكن
رسالته تدل إلا على مزاجه المتبدل فكان لا يزال يأمل بأنه يستطيع
اقناع البابا بمنح الحكم الذاتى للرومانى وتعيين فيكتور عمانوئيل
نائباً عنه ، كما أنه وعد بإعطاء بارمه لبيمونته ، ومع أنه كرر قوله
بأنه يحمى إيطاليا ضد أى تدخل تمسوى فقد قال للوفد الفلورنسى
بأن على مدينتهم أن تقبل ابن فرديناند فأجابه الوفد بأن طوسكانه لن
ترضى بأمراء اللورين ، وتوعده بأن الطليان إذا فقدوا ثقتهم فى نياته

سوف يعملون على أن يمتد لهيب الثورة إلى نابولي وصقلية ، وكان لهذا الوعيد مفعوله الحسن بيد أن الإمبراطور كان ناقصاً على الانتقادات المرة التي كانت صحافة تورينو توجهها اليه وحانقاً على رتازى لضغطه على جرائد صافوية الانفصالية على أنه بعد مرور بضعة أيام كتب للملك كتاباً مفتوحاً أصر فيه بشدة على آرائه الاتحادية مقترحاً مرة أخرى عليه الانضمام وقال فيه اذا قبلت ييمونته مرة أخرى شروطه فسيمنح فينيسيه الحكم الذاتى وسيجبر النمسة على جعل (مانتويه وبشيرا) من قلاع الاتحاد الإيطالى . وأصبحت وزارة تورينو التي كانت تهب تارة مع رياح باريس وأخرى مع فلورنسه أى ذات اليمين وذات الشمال ، موضع مقت العموم ، وكان رتازى الذى خشى أن يتهم بالخيانة مستعداً للموافقة على وصاية الأمير (كاريجنانو) ولولا أن زملاءه كانوا لا يزالون يتخوفون من قطع العلاقات مع فرنسة ، وعليه فإن الوزارة أجابت الإمبراطور بأنها ترفض فكرة الاتحاد وتركت قضية الانضمام إلى الظروف دون أن تحرك بشأنه ساكناً ، وكان مازينى قد عاد إلى فلورنسه بعد معاهدة فيلا فرنكه حيث ساعده ريكاسولى على الإقامة فيها بشرط أن يعده بأن لا يظهر أمام الناس ، وقد وافق مازينى على تعضيد فيكتور عمانوئيل بعد أن أبدى تحفظاته العلومة إذا اقتنع بأن إعلان الجمهورية فى مثل تلك الساعة يضعف شأن الحزب القومى من جهة ولا يفيد حزبه من جهة أخرى ،

ثم إنه عظم في نفسه خطر قيام مملكة نابليون في — الوسط ، وقد
أوفد كريسى إلى صقلية لإثارة الثورة فيها وألح على استرداد بيروزه
الأمر الذى (حسبما كان يمتقده) ، من شأنه أن يمد لهيب الثورة
إلى أومبرية والمارك حتى إالة بيروزه وبذلك يجعل آل بوربون بين
تارين ، فإذا تمت الوحدة الإيطالية قبل اجتماع المؤتمر فلا بد للمؤتمر
من أن يقبل بالأمر الواقع ، وبث لا فارينا بالاشتراك مع الجمعية
القومية ومن دون الاتصال بمازنى لجان الجمعية فى جميع أنحاء
الرومانى ، فاجتازت هذه اللجان الحدود وتوغلت فى أومبرية والمارك
وأخذت تجمع السلاح وتعد الناس للثورة فى الأيلات المضطهدة
حتى أصبح الانفجار على وشك الوقوع ، ولو ثار أهل أومبرية
لصعب منع الوطنيين من أهل الرومانى عن الإسراع إلى نجاتهم
ولكان قد حالوا دون توغل جنود البابا فى الرومانى ، واشتدت
نفرة الناس من سياسة تورينو الهوجاء ورغبتهم فى إجبارها على السير
حتى أن أناساً لم تكن لهم أى علاقة بالديموقراطية أخذوا ينجرفون
مع التيار ، وقد أرسل فارينى وفانتى من قطعات طوسكانة ومودينة
إلى الحدود من دون علم ريكاسولى ووضعها تحت قيادة غاريبالدى
وأمره أن يصد كل هجوم وأن يطارد المهاجمين إلى ما وراء الحدود .
وإذا ما نشبت ثورة فى المارك وأومبرية فليسارع إلى انجذابها ،
وافتح غاريبالدى اكتباباً لشراء مليون بندقية واستطاع ببياناته
الثيرة أن يجعل رأى العام فى هياج محموم ، وفزع ريكاسولى من

كل هذا وخشى من معارضته الرأي العام الكاثوليكي في أوروبا لفكرة الانضمام وإجبار الامبراطور على سحب وعده بصيانة الاستقلال الإيطالي . وبلغ الذعر في الوزارة البيموتية التي تأثرت بالرسالات الواردة من باريس حتى فكرت معه في فسخ الحلف العسكري وتسميخ نصف الجنود ، ولكن ريكا سولي عارض هذا المشروع الطائش معارضة شديدة وحال دون تنفيذه ثم نزل الملك إلى الميدان واستدعى غاريبالدى إلى تورينو في ٢٩ — تشرين أول وأجبر الجنرال فانتى على الانسحاب من منصبه ، ووصل غاريبالدى إلى تورينو فلم يشأ الملك أن يضغط على قائده الجزوع غاريبالدى الذى امتنع من الوعد بعدم اجتياز حدود أومبريه بعد أن تعهد بمساعدة الثورة إذا ما نشبت ، ولما عاد إلى ريمنى توقع أن يتسلم القيادة العامة لمناسبة استقالة فانتى وراح يشرع فى استعداداته لاجتياز الحدود ، وأخذ رجاله يحرضون الناس على الثورة فى المارك ، وكان المجلس التمثيلى فى بولونيه قد ألجأ سبيريمانى على الانسحاب ، وأناط الدكتاتورية بفاربنى الذى وحد بين الرومانى والدوقيتين بعنوان اميليا ، وطلب إلى فانتى بأن يعود إلى منصبه ثم أخذت الاعتراضات والشكاوى ترد من جميع بلاطات أوروبا ضد ما يجرى فى إيطاليا الوسطى ، فاستعمل كافور جميع نفوذه فى معارضة مشروع الثورة فى أومبريه والمارك . ولم يظهر أهل أومبريه استعدادهم للثورة ولذلك قرر

فانتى وفاربنى منع اجتياز الحدود واستدعيا غاريبالدى إلى بولونيه وأخذاً منه وعداً بالكف عن مشروعه غير أن خصومه الألداء زوروا برقية تخبره بنشوب الثورة فأمر غاريبالدى على أثر ورود البرقية جنوده باجتياز الحدود ، ولكن فانتى أمرع فأصدر إليهم أمراً منقوضاً لأمر غاريبالدى فامتثل الجنود الأمر الأخير ، ومنى غاريبالدى بخيبة مرة شديدة فعاد على جناح السرعة إلى بولونيه وأصر على فانتى وفاربنى بأن يستقيلا فأجاباه بالرفض البات ، ولم يكن غاريبالدى يستطيع أن يجبرهما على الاستقالة وبعد مرور يومين على هذا الحادث دعى إلى تورينو حيث أقنعه الملك بترك القيادة والعودة إلى حياته الخاصة . والحقيقة أنه لو تقدم غاريبالدى برجاله لوجد أمامه قوات روما و نابولى الممتدة ، ولو أقدمت نفسه على التدخل لوجد نفسه بين نارين لا يستطيع أن يتخلص منهما ، ومع ذلك فإن حادثة غاريبالدى لم تكن سوى أمر ثانوى كما عبر عنها ريكاسولى بيد أنها دلت على مقدار ما تتعرض له الحركة القومية من الأخطار بسبب الفوضى وفقدان التنظيم .

وكان استمرار الحالة بصورة وقتية قد يولد أخطاراً جمة واستطاع الحزب المتطرف أن يرفع رأسه ؛ أضف إلى ذلك أن قتل أنفىتى والتشهير به من قبل الدهماء وتساهل فاربنى فى معاقبة المجرمين قد حرج الموقف ودل على فقدان الأمن . وقد دبرت مؤامرة قليلة الشأن فى طوسكانه وكانت جنود البابا على أهبة

المهجوم في كل لحظة ، وكان الأمر في نظر ريكاسولى هو إضعاف
أشأن حكومة تورينو بتنفيذ مشروع الشهر الماضى القاضى بتعيين
الأمير كاريجنانيو وصياً ، وقد رأى أن حادثة غاريبالدى قد هيأت
له الفرصة وأبرق له مندوبه في لندن يخبره بأن وزير خارجية إنجلترا
يميل إلى قبول مشروع الوصاية ، وأن الإمبراطور يرغب قبل كل
شئ في المحالفة مع إنجلترا ولذلك فإنه سيضطر إلى الكف عن
معارضته واتضح أن وزير الخارجية الانجليزية قد تحدث عن ميله
لفكرة الوصاية إلا أن بالمرستون كان يرى أن الأمر لا يزال مبتسراً
وأن الإمبراطور لا يزال يعارضه ، أما ريكاسولى وفاريني فمقدا
النية على العمل رغم كل شئ ، فاجتمعت المجالس الأربعة في
٢ — تشرين الثانى ، وانتخبت الوصى . كانت وزارة بيمونتية
قد بذلت كل جهدها لتحول دون هذا الانتخاب ، ولما فشلت
أصرت على الحصول على موافقة الإمبراطور ولكن الإمبراطور
أرسل رسالة قارصة صرح فيها بأنه إذا رضى الملك بوصاية كاريجنانو
فلن ينعقد المؤتمر وتحمل بيمونته وحدها تبعه إغضابها للنمسة .
وكانت النمسة قد أئذرت بأنها تعد دخول الجند البيمونتى في
الدويلات الأربع عملاً عدائياً ، ولعل حكومة تورينو كانت تأبى
الخضوع لو اطمانت إلى معاهدة إنجلترا إياها ولما لم تجد تشجيعاً
منها عاد الوزراء حسب عادتهم إلى الماطلة والتسويق . وبتحريض
من كافور قرروا بأن يرفض كاريجنانو الوصاية وينتدب بون كومبانى

حاكماً عاماً على اميليه وطوسكانه ثم أخبروا الامبراطور بقرارهم هذا وجعلوه أمام أمر واقع فرضى عن طيبة خاطر بهذا الحل ؛ أما ريكاسولى فلم يقبل بهذا الحل وقال « الأمير أو لا شيء » وكان لا يريد أن يتخلى عن سلطته ولا يريد أن يقيده يده التى اعتقد أنه يصون الأمن بها ، ولم يوافق على تعيين بون كومبانى إلا بشرط وهو أن يصبح كومبانى نائباً للوصى ، وأخيراً استطاع الملك أن يوفق بين الفكرتين بتعيينه بون كومبانى حاكماً عاماً على الدولتين (اميليه وطوسكانه) ويشرف على إدارتهما إشرافاً رسمياً .

ولكن هذا الحل لم يؤد إلى الغاية المقصودة من انتخاب الوصى ، فبقيت الأمور على ما كانت عليه ، غير أن الامبراطور أخذ يقتنع شيئاً فشيئاً بعدم إمكان عودة الأمراء إلى عروشهم وأن الاتحاد لا يمكن تطبيقه وأن القوة وحدها هى التى تمنع دويلات الوسط من الانضمام . وكانت النمسه على الرغم من إنذارها ضعيفة لا تستطيع التدخل ، ولو فرضنا أنها كانت قوية تستطيع أن تدعم قولها بالعمل فإن الامبراطور لا يرضى بأن تصبح نافذة الكلمة مهيمنة على بيموتية ؛ ثم أبقن أن عدم الاستقرار يؤدى إلى اندلاع النار وامتداد حركة الوحدة إلى الجنوب كما سبق فأخبره الوفد الطوسكانى بأن إيطاليه تصبح بؤرة ثورية قد تخلق أورسينى آخر ، وتنتقل منها روح الثورة إلى فرنسه . وكان

السلم قد عقد في زوريخ في ١٢ — تشرين الثاني فجعل الامبراطور طليق اليد تجاه النمسة ، فالاستفتاء العام في إيطاليا إذا جاء مؤيداً للانضمام هو الوسيلة الممكنة ، وإذا ما ألحقت صافويه ونيس بفرنسه جزاء موقفه فسيصبح قوياً بحيث لا يعبأ بالألاكليريكيين فضلاً عن أن الروماني تدخل بذلك في حوزة حكومة قوية حرة تصونها من القوضى .

وكان لابد لهذا التبدل في موقف الامبراطور من تبدل في سياسته أيضاً ، فقد كان حتى ذلك التاريخ يبذل جهده لإقناع انكائره بتأمين عقد المؤتمر غير أن المؤتمر قد يكون ضربة قاضية على خططه الجديدة لأنه لا يستطيع أن يصرح فيه نيأته ومطامحه في صافويه ونيس . أضف إلى ذلك أنه كان يعلم بأن الدول الكاثوليكية لن ترضى عن تقليل ممتلكات البابا فعليه إذن أن يحول دون انعقاد المؤتمر والاستناد إلى مخالفته أنجلتره في تنفيذ سياسته ضد البابا . وكان حينذاك قادراً على إخفاء مقاصده بشأن صافويه ونيس ، فحس نبض إنجلتره لمعرفة فيما إذا كانت توافق معه على أن يصبح دوق جنوه ابن فيكتور عمانوئيل الصغير وصياً على طوسكانه والروماني باسم أبيه . وكانت وزارة بالمرستون تستهدف في سياستها الإيطالية ثلاث نقاط : ١ — تحقيق الآمال الإيطالية بطرد النمسة من إيطاليا ، ٢ — القضاء على النفوذ الافرنسي في إيطاليا ، ٣ — إضعاف سلطة البابا الزمنية وإزالتها . ولما وافق

وزير الخارجية الإنجليزية على عقد المؤتمر كان قد اشترط قبل انعقاده أن تفلح الدول عن فكرة التدخل المسلح وألح على ذلك ، ولكن النمسة أجابت بصراحة أنها ترغب في إعادة الأمور في إيطاليا إلى حالتها وظهر أن روسية وبروسية تحذوان حذوها فتشجع نابليون في عزمه على إحباط مشروع عقد المؤتمر .

وصدرت في باريس قبل عيد الميلاد رسالة عنوانها (البابا والمؤتمر) ، وكان محور البحث فيها يدور حول ضرورة تصغير ممتلكات البابا مبرهنة على أنه كلما صغرت ممتلكات البابا كبرت سلطته الروحية ، ومع أن الرسالة لم تتعرض للبحث عن المارك وأومبرية فإنها اقترحت بأن تقتصر أوروبا على حمايتها لروما ولا كوماركة . وتلا ذلك أن أبعد الإمبراطور وزير خارجيته والويسكي وعين نوفيل عدو الأكلريكيين ونصير الحلف الانجليزي . وسرعان ما بلغت السياسة الجديدة هدفها الأول إذ استوضحت حكومة النمسة الحكومة الفرنسية فيما إذا كانت فرنسة تقف في المؤتمر موقف المدافع عن المبادئ الواردة في الرسالة فلما تلقت جوابا إيجابيا انسحبت من المؤتمر . وسارت الأمور في إيطاليا وفي باريس سيرا سريعا فبعد أن رفضت النمسة الاشتراك في المؤتمر بخمسة عشر يوما تقلد كافور رئاسة الوزراء ، ويجدر بنا هنا أن نتحدث عن المناورات السياسية المحلية التي انتهت بعودة كافور إلى الحكم فنقول لقد كان رتازي يعلم بأن وزارته سوف تسقط

حالاً يجتمع المجلس النيابي ولا سيما لأن أصدقاء كافور قد لموا صفوفهم وأخذوا يهاجمون الوزارة ليضمنوا عودته إلى الحكم ، وكان الملك لا يزال يحقد عليه بسبب التفريق بينه وبين خليلته ولم ينس الكلام القارص الذي وجهه إليه كافور على أثر معاهدة فيلا فرنكة ، ولعله اعتقد بأنه لن يقتصر في المستقبل إلى دعوة وزيره العظيم إلى الحكم فقبل بروفيو وقاليريو في بلاطه فأخذوا مع أنصارها من حزب اليسار يسمون للحيلولة دون عودة كافور إلى استلام زمام الحكم . وفي بداية شهر كانون الأول نظموا صفوفهم باسم اللجنة الحرة ، وأخذوا يدسون الدسائس ، ويحيكون المؤامرات ضد كافور ، الأمر الذي أدى بأصدقاء كافور في المجلس أن يعملوا لمكافحة هذه المؤامرة بتأليف حزب سموه (الاتحاد الحر) ونجح هذا الحزب وامتد نفوذه امتداداً أفزع الملك وجعله يفكر مضطراً في الموافقة على إيفاد كافور إلى المؤتمر النوي عقده بعد أن تردد طويلاً في إيفاده اعتقاداً من الوزراء بأن نجاحه في المؤتمر يقوى مركزه في البلاط . وقد سعى الدساسون إلى جلب غاريبالدي إلى جانبهم لاستغلال سمعته ، وكان هذا قد ترك الروماني حانقاً مكسور الخاطر رافضاً الترضية التي قدمها له الملك . ولا شك في أن الملك ورتازي قد لعبا دوراً في هذه المناورة وشجعا غاريبالدي على سياسته المتطرفة ، وربما على هجومه على أومبرية ، ولعل الملك كان جاداً ، أما رتازي فقد خدع

غاريبالدى ليستغله مصلحة حزبه الخاصة . وطلب غاريبالدى أن تبدل اللجنة الحرة اسمها وأن تتسمى باسم (الأمة المسلحة) أملأ منه بالقدرة على جمع المال لشراء المليون بندقية ، وقد وافقته اللجنة على تكليفه وعين رئيساً لها ولكن هذه الحركة المستهينة لم يلق تشجيعاً لافى مجلس الأمة ولا فى البلاد ، حتى أسرع الحكومة إلى التنصل منها ، فتأثر غاريبالدى وغضب من هذا العمل وأمر بإلغاء اللجنة .

وأما فى إيطاليا الوسطى فأخذ الهياج والقلق يندران بالخطر فى إيطاليا الوسطى وأيقن أعضاء الاتحاد الحر وجميع القوميين فى مجلس الأمة على اختلاف نزعاتهم لما أدرك دازجليو بأنه لا يمكن القيام بأى عمل مادام رتازى على رأس الوزارة ؛ وأمام هذا الإجماع وضغط الرأى العام لم ير هذا بداً من الاستقالة . فتولى كافور فى ١٦ كانون الثانى رئاسة الوزراء ففرح الناس لهذه النهاية وتنفسوا الصعداء . استطاع كافور أن يستفيد أقصى الاستفادة من الظروف التى مهدت له الطريق وأعادته إلى الحكم . وقد وعد بأن تكون سياسته سياسة إيطالية إلى أقصى الحدود . فأخذ يستهدف فى عمله تحقيق الوحدة بمعناها الأوسع ، واعتقد أنه إذا ما انضمت طوسكانه والرومانى إلى ييمونيه فإن الثورة كفيلة بعد ذلك بضم نابولى وصقلية إلى المملكة . أما أومبرية والمارك فبعد أن تصبح إيطاليا الحرة الجديدة فى جانبها فستتخليان عن البابا ثم يأتى بعد

ذلك اليوم الذى نستجمع الأمة فيه كل قواتها للاستيلاء على القلاع الأربع واحتلال فينسيه . ومع أن كافور كان يشجع أنصار الوحدة الصقليين سرّاً فإنه كان فى الحين ذاته حريصاً على عدم وقوع حوادث مربكة فى الجزيرة ، وإذا اقتضت الضرورة بأن ينتظر بضع سنوات قبل أن يقدم على فتح إيطاليا الجنوبية ، ولكن كان هدفه الأول الاستيلاء على أميلية وطوسكانه ، وظل فى هذا الشأن صلب المود لايلين ولا يتراجع أملاً أن يرى نواب إيطاليا الوسطى فى طليعة نواب مجلس الأمة حين ينعقد . وجاء تعيين فانتى وزيراً للحربية وكان لا يزال يقود جيش الحلف مظهر عملياً ودليلاً فعلياً على الوحدة . وكان كافور يدرك أن التخلي عن نيس وصافويه أمر لا بد منه فى سبيل بلوغ الغاية المثلى وهى الوحدة الإيطالية ، وقد استعد هو وفيكتور عمانوئيل لاحتمال هذه التضحية ومواجهة سخط رأى العام الذى أفرغه زملاء رتازى . وكان كافور يتألم كثيراً لهذه الضرورة القاهرة ، ولكنه كان قانعاً بأن تقديم هاتين الأيالتين الصغيرتين للإمبراطور فى حالة إصراره هو الذى سيؤدى إلى حماية إيطاليا الوسطى ، وكان يعلم جيداً بأن هذا العمل قد يقضى على ميمته لدى الشعب غير أنه كان على استعداد بتضحية نفسه على مذبح النفع العام ، وأن يبيع فى سبيل وحدة إيطاليا كل شئ الأصدقاء والضمير والسمعة الحسنة ، وأن يتقبل كل التضحيات التى تنيله آماله . وقد عقد

النية على أن يكسب الأيالات الوسطى مهما كلفه الأمر ، وكان يرغب في أن يكسبها برضاء الامبراطور إن أمكن لأن وقوف ييموتيه وحدها في وجه النمسه كان خطراً عظيماً عليها . وكانت الحكومة الإنجليزية قد اقترحت إيجاد تفاهم افرنسى انجليزى لتنظيم القضية الإيطالية ، وكان بالمرستون ورسل يذهبان إلى أبعد من ذلك ويميلان إلى عقد حلف بين الدولتين للدفاع عن المصالح الإيطالية ، غير أن ملك إنجلترا عارض هذا المشروع . وكان جلادستون الوزير الوحيد الذى حبذه بين أعضاء الوزارة ، وكانت الأمور تدل على أن إنجلترا لا تعارض في انضمام الأيالات إلى ييموتيه إذا قررت المواد الأربع التى تؤلف دعائم السياسة الإنجليزية بالنسبة للقضية الإيطالية . ولما اطلع كافور على هذه الأخبار السارة رأى أن العقبات زالت وأن الطريق ممهدة له .

ولكن بعد أن تم التفاهم الإفرنسى الإنجليزى حدث ما قوضه ، ذلك أن السياسة الإنجليزية الخارجية كانت تحذر من فرنسه وتترقب سياستها ، وكان حذرهما من السياسة الإفرنسية فى إيطاليا أقوى من ميلها و صداقتها لإيطاليا . وقد استطاع الإمبراطور بادىء الأمر أن يخفى نيته نحو صافويه وأن ينجز المفاوضات بلباقة ولكن هذا السر تسرب بغتة ، وحاول كافور وتوفنيل ، وزير خارجية فرنسه ، عبثاً إخفاءه بالكذب الجريء ولكن إنجلترا اعتقدت أنها خدعت فحنقت حنقاً شديداً ، وخشى

الإمبراطور أن يقع كافور في أحضان إنجلترا في سبيل حرصه على ضم إيطاليا الوسطى بمساعدتها وبهذا يخسر نابليون صافويه ونيس بينما كان يعتبر كسب هاتين الأيالتين أمراً جوهرياً ، ولا سيما بعد ذلك السخط الذي جلبته الرسالة والكتاب المرسل للبابا من الكاثوليك في فرنسا ، فاعتزم أن يأخذ صافويه بأى ثمن كان حتى إنه وافق على أن تقدم بيمونتيه في إيطالية نحو الناحية التي تستطيع أن تصل إليها . وبينما كان يفاوض إنجلترا كان يساوم كافور ويلوح له بالحكم في الرومانى نيابة عن البابا ، وبتأسيس دولة منفصلة في طوسكانه والموافقة على امتلاء أمير من آل صافويه عرشها وراح يتردد بين طوسكانه أو صافويه ونيس ، وأمسى يهدد بيمونتيه بسحب القوات الفرنسية من لبارديه وترك البلاد تحت رحمة النمسه . وهنا تتجلى لنا الصعوبات التي كان يجابهها كافور في توجيه دفة السياسة . وقد تباينت الحلول والوجهات فكان عليه مثلاً أن يستند إلى محالفة إنجلترا بضم طوسكانه والرومانى وأن يرفض التخلي عن صافويه ونيس ، أو أنه كان يجب أن يحقق رغبات الإمبراطور فارضاً أن سيادة البابا الغامضة على الرومانى لا يؤبه لها ، وأن اعتلاء دوق جنوة عرش طوسكانه وتعيين ريكاسولى وصياً إنما يعين انضمام طوسكانه في الواقع ولكن التخلي عن فكرة الضم المطلق من شأنه يجرح الشعور القومى وأن يغضب أهل

طوسكانه وأن يساعد أنصار الحكم الذاتي على رفع رؤوسهم ،
وأخيراً قرر بأن يضحى بصافويه إذا قضت الضرورة بنيس أيضاً .
ووافق على إرضاء نابليون في جميع الأمور الثانوية واجتنب في
حذر التلميح لإنجلترا في الحرب وأعد العدة لإجراء الاستفتاء في
إيطالية الوسطى بالاقتراع العام . وكان يعلم بأن الامبراطور لن
يستطيع أن يرفض حق الشعب في الاقتراع ، ذلك لأن الاستفتاء
الشعبي بالاقتراع في فرنسه هو الذي أقعده على عرش فرنسه ،
وكان إصرار كافور على إلحاق طوسكانه شديداً لا يترجّح عنه ،
وكان يعتمد في رفضه التخلي عن طوسكانه على معاضدة إنجلترا
الأدبية وعلى معاضدة بروسية إلى حد ما . وأما إذا ساءت الأمور
فإنه اعترّم على مقاومة نفسه وحده بدلاً من أن ينزل الراية
القومية التي خفقت في طوسكانه ، وقد حرص فانتى على تنشيط
حركة التسليح سراً وبسرعة ، وقدر بأن على الملكة أن تنزل إلى
الميدان مائتي ألف جندي ، وعجل في إجراء الاقتراح العام بأن
استصدر إرادة ملكية في ١ أذار يقضى بإجراء الاقتراع في
دويلات الوسط حلاً ، وإذا ما جاء الاقتراع مؤيداً لفكرة الانضمام
فسيقبله توماً انتخاب النواب إلى البرلمان الإيطالي . ورأى
الإمبراطور حينئذ بأن معارضة إجراء استفتاء عام لا تجدى
نفعاً ، وكانت اعتراضاته الأخيرة ترمى قبل كل شيء إلى تأمين
الحصول على صافويه ونيس . وقد وعد رُسل وزير الخارجية

الإنجليزية بأن يستشير الدول العظمى قبل أخذه الأيالتين (صافويه ونيس) ، وتعهد بأن يجرى فيهما استفتاء شعبي باقتراع عام . وكان أشد ما يخشى أن تبذل حكومة تورينو جهدها ليأتي الاقتراع ضد الانفصال عن بيمونتية ولا سيما لأن كافور وعد بالأيتخلي عن الأيالتين إذا اقترعنا لبيمونتية ، وعليه فإن الإمبراطور أصر على بيمونتية بأن توقع معاهدة سرية قبل الشروع بالاقتراع العام في إيطاليا الوسطى ، تتمتع فيها التخلي عن صافويه ونيس فلم يسمع كافور أن يرفض هذا الطلب ولا سيما لأنه كان يعلم بأن المعاهدة السرية لا قيمة لها من الوجهة الدستورية ، ومع هذا فإنه أراد أن يساعد نابليون في كفاحه للاحتفاظ بعرشه في فرنسا ولعله شعر بأن التخلي عن الأيالتين من شأنه أن يجعل إيطاليا في حل من تعهداتها تجاه فرنسا ويجعلها مستقلة أدياً ويعهد لها الطريق نحو إيطاليا الجنوبية . وقد وقع على المعاهدة الخفية في ١٢ — أذار بيد أن الإمبراطور طالب بمعاهدة علنية ليسكن بها الاستياء المتزايد في فرنسا ، وأرسل مندوبه بنديتي إلى تورينو لهذه الغاية وقيل ان كافور رفض إذ ذاك التوقيع لو لم يهدده بنديتي باحتلال بولونية وفلورنسه من قبل القوات الفرنسية التي لا تزال في لمبارديه . وكانت تلك الساعة أشق ساعة في حياة كافور العامة إذ وقع فيها على المعاهدة العلنية في ٢٤ — أذار وقلبه يحترق المآ . وجاءت نتائج الاقتراع العام الذي جرى بين ١١ و ١٢ أذار فوزاً

مبيناً لفكرة الانضمام . وكانت الإرادة الملكية تقضى بأن
يمنح حق الاقتراع لكل ذكر بلغ سن الرشد ، وكان على المصوت
أن يختار بين الانضمام إلى بيمونتيه وبين قيام مملكة منفصلة
فاقتربت دولة أميلية لفكرة الانضمام بما يكاد يكون إجماعاً ،
أما في طوسكانه فقد استطاع أنصار الحكم الذاتي أن ينالوا خمسة
عشر ألف صوت ونال أنصار الانضمام (٣٨٦٠٠٠) صوت .
وقبل انقضاء خمسة عشر يوماً صدرت الإرادات الملكية
بإعلان اميلية وطوسكانه جزء لا يتجزأ من المملكة الحديثة ، ثم
جرت الانتخابات في اليوم التالي واجتمع البرلمان الإيطالي في
٢ نيسان في تورينو ، وقد تألف من النواب البيمونتيين والليغورديين
والطوسكانيين وأهل الروماني لتدشين المملكة الجديدة التي
استطاعوا بثباتهم وصبرهم تكوينها ، وبذلك زاد عدد نفوس
المملكة الصغيرة من خمسة ملايين إلى أحد عشر مليوناً رغم
خسارتها (٧٠٠٠٠٠٠) نسمة . في صافوية ونيس وأصبحت
نفوس تلك المملكة تقارب نصف عدد نفوس شبه الجزيرة .
ومع أنه ظل شبح نيس يحيم على المجلس النيابي إلا أن نشوة
الفوز التي ولدها النصر الباهر تغلبت على ماولده الشبح من كآبة ،
حقاً لقد كانت نتيجة الانتخابات فوزاً عظيماً لكافور ، وقد امتنع
أكثر الإكليريكيين عن التصويت فلم يؤلفوا بعد ذلك حزباً
سياسياً ؛ أما الديموقراطيون فلم يفوزوا كما كانوا يأملون والتف

خمسون نائباً حول رتازى وبهذا تأكد كافور من أن ثلثى أعضاء المجلس يسرون وراءه بإخلاص .

لما وجدت المذاكرة بشأن التخلي عن صافويه ونيس في المجلس ثارت عاصفة عنيفة من السخط فيه ولاح للمرء أن البرلمان قد يشن أعمال المملكة الجديدة بإسقاط الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يدير دفتها . وحاول غاريبالدى أن يربك الموقف فى موجة من الغضب استولت عليه إلا أن المجلس — منح الثقة للحكومة وجرى الاقتراع العام فى صافويه ونيس فى ١٥ و ٢٢ نيسان وجاءت نتائجه بجانب فكرة الانضمام لفرنسه ؛ بيد أن عدد الذين اشتركوا بالاقتراع لم يدل أبداً على رغبات الأهليين الحقيقية . وإذا كان أهل صافويه يميلون إلى الانضمام إلى فرنسه لأسباب عرفية واقتصادية فإن أهل نيس كانوا ضد الانفصال عن ييموتقيه . وقد اشتركوا فى حركات إيطالية القومية ، وكانوا إيطاليين لحماً ودماً ، وقد بذلوا جهدهم للتخلص من المصير الذى فرض عليهم . ولما جرت المذاكرة على المماهدات فى المجلس كان غاريبالدى قد سافر إلى الجنوب وكان على وشك أن يقاتل فى صقلية فأسكتت قضية إيطالية الجنوبية كل شيء وكبحت جواب المعارضة .

الفصل التاسع والعشرون

أنصار الوحدة

كانون الثماني : آذار — ١٨٦٠

أدركت الجماعات القومية بأن العمل لما يتم ، وأن ضم إيطالية الوسطى لم يكن سوى الخطوة الأولى ، وأنه ما لم تنضم إيطالية الجنوبية وفنيسية وما بقي من ممتلكات البابا إلى المملكة الجديدة فلن تهدأ الأحوال ؛ وإذا هدأت فلمدة قصيرة فقط . ولم تختلف هذه الجماعات فيما بينها إلا على الوقت الذي ينبغي أن يتخذ فيه التدبير الأول وعلى كيفية هذا التدبير ؛ فإزني كان مقتنعا بأنه لا يمكن أن ينتظر من كافور بأن يبدأ بالسعى فلذلك استمر على العمل الذي توقف حينما استدعى غاريبالدي إلى الروماني وكانت خطته لا تختلف عن سابقها وهي إعداد العدة لإيقاد الثورة في صقلية وأومبريه في آن واحد وتوجيه قوى الثورة نحو نابولي . وإذا ما بدأت الثورة فإن الرأي العام كفيل بإجبار حكومة ييمونته على مد يد المعونة إليها . وكان كريسبي أحد زملائه الأشداء قد أسعّر ثورة في صقلية في كانون الأول وأمال إلى جانبه فاريني

ولعله اقنع رتازى بتقديم مساعدة الحكومة للحركة . وكان مازينى وكريسى يسعيان لكسب غاريبالدى حتى يصبح قائدا للحركتها . أما العقلاء من الحزب المتطرف مثل مدويجى وبرتانى فكانوا يخشون أن تنتهى الحركة بالفشل كما انتهت مشاريع مازينى المشؤومة ؛ ولذلك اشترطوا بأن يتسلم غاريبالدى زمام الثورة وكانوا يرغبون من صميم قلوبهم بأن يتم التفاهم بين كافور وغاريبالدى .

أما كافور فقد اشتدت عزيمته للظفر بالوحدة وهو الذى قال بعد معاهدة فيلافرنكة « إنهم منعونى من تكوين إيطالية بالسياسة بادئا من الشمال ، فسأخلقها بالثورة بادئا من الجنوب » ، وكان أحيانا يرى بأن على الجنوب أن ينتظر وأنه يحسن بأن تبدأ الحركة أولا بالهجوم على فينيسية ، ومهما يكن رأى فإنه عزم ؛ بكل قوته على تنفيذ منهج الوحدة بأجمعه عاجلا أو آجلا ، وقد كتب دازجليو يقول : « لقد أصبحت الوحدة منارنا » ، وكان الملك جزوعا أيضا ولم يكن أى اختلاف بين كافور ومازينى وريكاسولى وغاريبالدى والملك فيما يتعلق بضرورة السير إلى الأمام ، وإنما كانوا يختلفون فى الهدف الأول : أليكون فينيسية وممتلكات البابا ، أم الجنوب . وكانت فينيسية توشك أن تفقد رجاءها بعد معاهدة فيلافرنكة وأخذ أهلها يفرون بالآلاف مجتازين الحدود للانخراط فى سلك الجيش الإيطالى أو لتدبير المؤامرات فى مودينة أو ميلانو . ولما فازت القضية القومية فى إيطالية الوسطى تنفست الأباله

الصعداء . وامتدت شبكة من الجمعيات السرية في جميع أنحاءها ، وقد شجع اضطهاد الحكومة النمساوية والضرائب الباهظة على الثورة فأخذ كافور يقرع آذان العالم الأوربي بالحديث عن الآلام التي تكابدها فينيسية .

وكانت الحركة قومية لا بابوية بطبيعة الحال ، ومن شأنها أن تؤدي عاجلا أو آجلا إلى انهيار السلطة الزمنية للبابا . وقد شرع كافور حملته بالتقيام بالإصلاحات في جميع الإيالات المحررة ، فاشترع فيها نظام النكاح المدني وألغى فيها الأديرة ، ولعمل الإصلاحات سارت فيها شوطا بعيدا لم تبلغه ييمونته ، فطرد اليسوعيون من جميع الأنحاء وأصبحت أملاكهم ملكا للأمة ، وألغيت الاتفاقية الدينية في لمبارديه وتمتع الناس بحرية العبادة . أما في بودينه وبارمه فنقذت قوانين سكاردي وأباح جيرباني في الروماني التعبد ومنع الاكليس من مراقبة التعليم والأمور الخيرية . أما في طوسكانه فألغى ريكاسولي وصالفا جنولى الاتفاقية الدينية وأعاد قوانين لثيوبولد ولبي رهبان لمبارديه الذين يفوقون جميع زملائهم في إيطاليا بالوطنية أوامر حكومة ييمونته وتحرر رهبان طوسكانه من نير الاتفاقية التي فرضت عليهم الخضوع للأساقفة . أما الاكليس الفقير فتلقي التشريع الذي يزيد في وارداته الضئيلة بسرور وارتياح ؛ أما روما فلم تلق فيها الدعوة إلى المصالحة والسلم آذانا صاغية ، وإذا كان بعض الرهبان الأحرار يرضون عن المبادئ الواردة

في رسالة (البابا والمؤتمر) ، ويوافقون على أن تقتلص ممتلكات الحكومة فإن أكثر أنصار البابا كانوا يعتبرون حقوق البابا مقدسة لا يجوز مسها وأن التخلي عن الروماني معناه الاعتراف بالتخلي عن الأيالات الأخرى أيضاً ، وكان البابا منذ مدة طويلة قد حرم جميع الذين اشتركوا بالثورة وحكم بكفر دازجيلو لأنه قال لأهل بولونيه : « خلق الله الإنسان حراً في أرائه الدينية والسياسية » .

وقد صب أنصار البابا كل سخطهم على بيمونته وكانوا يعتبرون بيمونته مرادفة للثورة فهما شيء واحد . وفي شهر تشرين الأول سلمت الحكومة البابوية الممثل البيمونتي في روما جواز سفره ، ثم رفض البابا بعد ذلك كل سعى في التفاهم وكان انتونللي يعتمد قبل كل شيء على الجيش ولكنه كان لا يستطيع أن يركن أبداً إلى الجنود من الأهليين لأنهم كانوا يجندون من سقط المتاع ، وعليه فقد وجه نداء إلى أوربا الكاثوليكية يستمد منها فيه الجند والمال للدفاع عن العرش البابوي ضد الحملات الاتحادية ؛ ومع أن الكاثوليك لم يجودوا بما لهم فقد تدفق المتطوعون من النمسة وسويسرة وبلجيكة وفرنسة وإيرلنده أفواجاً للدفاع عن مصلحة الكنيسة ضد الاتحاد الثوري الذي يهدد أوربا . إن عملهم هذا لا يمكن تصويبه لأنهم قد آتوا لصيانة الفساد الذي لم يتحملوه هم في بلادهم وجاءوا يقاومون الشعب المضطهد جد الاضطهاد والذي

يجاهد للحصول على حريته ، وكان بينهم فتيان مثقفون من الشجعان الأتقياء الذي ينتمون إلى أشهر الأسر وقد تركوا قصورهم المأدبة من برطانيه وبلجيكة وشرعوا للدفاع عن قضية لا يليق بهم أبدا أن يضجوا بأنفسهم لأجلها ، ولقد أصبح لدى انتونللى فى نهاية آذار خمسة عشر ألفا من المتطوعين ماعدا خمسة آلاف هم قوام الجيش البابوى المنظم وإذا أضفنا إليهم الحامية الافرنسية فى روما ونظرنا بعين الاعتبار إلى وجود جيش نابولى فى الخط الثانى أدركنا تحشيد قوة كافية فى أومبريه والمارك للدفاع عنهما . وقد توقع أن يسترد بهذه القوات الرومانى أيضاً واختار انتونللى القائد الافرنسى الجنرال (لا موسير) قائداً للقوات وكان هذا القائد قد ترك فرنسه على أثر الانقلاب الحكومى فيها وأصبح الآن البطل المكافح عن البابوية .

وصمم القوميون على أن لا يتركوا أومبريه والمارك رغم خصومة العالم الكاثولىكى ونقمته وهم لم ينسوا حادثة بيروزه الفظيعة ، أما الحكومة البيمونتية فقابلت أعمال انتونللى بإزال الضربة على الأساقفة المعارضين ؛ وتهدد قسم كبير من البيمونتيين بعدم حضور القداس ، وأما الأحرار الكاثوليك المتدينون الذين كانوا يدركون الخطر فكانوا يرون أن الدواء فى انهيار السلطة الزمنية ، فلا توجد فى نظرهم أية مغالطة تستطيع أن تخفى بطلان الأسباب التى يستند إليها فى إثبات مشروعية استقلال البابا بينما

يقوم عرشه على حراب فرنسه . وبينما هو نفسه يستند إلى التمسح
لحمايته الخاصة ضد رعيته ، وأخذ الناس يشعرون بأن البابا لا يريد
الإصلاح ولا يستطيع أن يعمل به ولن يرضى بقيام المؤسسات
التمثيلية ولا بحرية الصحافة ولا بالمدارس الألمانية ولا بالمساواة
بين الكاثوليك والمدنيين أمام القانون . وأدرك القوميون في
إيطاليا بأنه ما دامت روما تغدو عشا للدسائس للأمراء المخلوعين
فإن انتونللي لا بد من أن يسمى لجر الكاثوليك إلى مؤامرة واسعة
النطاق ضد حرية إيطاليا واستقلالها ، وبذلك تكون السلطة
الزمنية خطراً دائماً على الملكية الجديدة فما لم يسرح البابا متطوعة
وما لم تصبح روما عاصمة إيطاليا فإن خطر الحرب الأهلية التي
يثيرها التعصب الديني متوقع في كل لحظة .

ولم يكن هدف القوميون في ذلك الحين يتعدى الاستيلاء على
أومبريه والمارك ، ولم يفكر أحد بالاصطدام بالحامية الفرنسية
المرابطة في روما إلا بعض المتطرفين ، وكانت أكثرية الرعية
البابوية تنتظر التخلص من حكومة البابا بفارغ الصبر . ولم يكن
القوميون في الخارج أقل تلهفاً على إنقاذ مواطنهم وقد سخط
المعتدلون من أمثال كانوتي ودازجليو سخطاً عظيماً من هذا النوع
الجديد من التدخل في الشؤون الإيطالية من قبل جماهير الأفاقين
من متعصبة الكاثوليك ، وقد قال ريكاسولي : « إننا إذا هوجنا
سنعرف كيف ندافع عن أنفسنا ونغدوا بعد ذلك مهاجرين » .

واتصل باللجان الوطنية في أومبريه اتصالاً وثيقاً حاثاً إياها على التأهب للثورة ، طالبا توعز الحكومة بإسعار نارها .

وفي ٧ شباط كتب فكتور عمانوئيل إلى البابا كتاباً طلب إليه فيه أن يمنحه سلطة الحكم ليس على الروماني فحسب ، بل على الأيالتين الأخريين نيابة عنه مؤكدا له في الوقت نفسه إخلاصه للكنيسة بيد أن هذا النداء لم يلق أذنا صاغية لدى البابا . ومع أن الملك بعد الاقتراح كتب مرة للبابا عارضا عليه — لمصلحة السلم — الاعتراف بسيادة البابا الاسمية على الروماني من دون أن يذكر الأيالتين الأخريين ، فإن أنتونللي رفض كل مفاوضة رفضاً باتاً . وكان كافور وحده من دون الجميع يتوقع بعض الخير من هذه المفاوضات ، وقبل أن يصل رفض أنتونللي البات كان قد سمي لحل نابليون على الاستعجال في سحب جنوده ، والآن بعد أن امتنع البابا عن القيام بأي اصلاحات فإن الامبراطور لم يرض أن تصبح روما عشاً للدسائس ، فلذلك اتخذ تدابير شديدة ضد الصحافة الكاثوليكية الفرنسية وتهدد البابا بسحب جنوده إذا هو لم يقبل نصائحه . واقترح في شهر نيسان بتبديل جنوده بمجنود نابليون ، ولما رفض الملك نابولي هذا الاقتراح خشي أن يؤدي إلى حرب ييمونتي ونابولي عاد الامبراطور فاقترح تأليف جيش أهلي يكفي للدفاع وأغرى البابا بقبول الفكرة بقوله بوجوب دفع الدول الكاثوليكية نفقات هذا الجيش للبابوية ، وحينئذ ينسحب

الإفرنسيون . وما أسرع ما يقبل انتونللى الذى كان يكره الحماية الإفرنسية هذا التكليف بشوق ورغبة . وقد وافقت النمسة و نابولى وأسبانية على الاقتراح ، وكان البابا والقائد لامارسيلير يرغبان فى الاحتفاظ بالإفرنسيين فى روما وترك الكتائب الأهلية والمتطوعين طليقى اليد فى الحركة ضد الرومانى ، ولكن ممثل الإمبراطور فى روما توفى إلى عقد اتفاقية تضمن انسحاب الإفرنسيين فى ١ تموز ثم حدثت حوادث حالت دون تنفيذ هذه الاتفاقية ، ذلك أن غاريبالدى نزل إلى مرساله وزيمانيكى فى اليوم السابق لليوم الذى وقع فيه على المعاهدة وتأهب لاجتياز حدود الأراضى البابوية . وحدثت فى صقلية مأساة فاجعة أنست الناس فى هذه الساعة القضية الرومانية ، وتفصيل ذلك فيما يلى :

كان استبداد حكومة نابولى فى صقلية والكرهية المستجوزة على العموم ضد آل بوربون وثورات الصقليين التقليدية عوامل فعالة فى توجيه نظر القوميين منذ سنوات مديدة نحو رسم خطة تستهدف أسعار لهيب الثورة فى الجنوب ولم يعتبر فرديناند من حوادث الزمن وأخذ الخلل يزداد فى الإدارة كلما شملت الآلام صحة الملك وقد انتابه فى آخر عمره مرض عضال ومات على أثره فى ٢٢ ايار ١٨٥٩ خلفه ابنه فرنسوا الثانى ؛ فكان هذا الملك الفتى يجهل شؤون الدولة كل الجهل ولذلك استمر على سياسة أبيه الخارجية متمسكا بمعظم أسسها . وتولى فيلانجيرى رئاسة الوزارة ولو كان هذا

طليق اليد لمنح الدستور ، بيد أن قوى الكنيسة والجيش تألبت عليه لإحباط مشاريعه في بداية سنة ٢٨٦٠ فقدم استقالته وطالبت الحكومتان الفرنسية والإنجليزية بالإصلاحات ، ثم إن بروسية وروسية أيضاً نصحتا الملك بالاعتدال خشية أن يوقد الاستبداد نار الثورة ، فقامت الحكومة ببعض الإصلاحات الطفيفة وشمل العفو العام المسجونين السياسيين بيد أن الشرطة استمرت على قساوتها وسوء معاملاتها .

وأرادت فئة صغيرة من اللاجئين إنقاذ آل بوربون وحملها على حفظه مكانتها كما أراد اشراف فلورنسه إنقاذ الدوق الكبير ؛ فطالب هؤلاء إلى الملك تطبيق سياسية تقدمية حرة . وقد خيل لبعض أفراد قلائل منهم صيف سنة ١٨٥٩ بأن الوحدة بين الشمال والجنوب ستدخل في دور سياسي عملي ، ولإبعاد موراث عن العرش .

كانوا يريدون عن طيبة خاطر تهديد السيل لفرنسوا ، وكان كافور رغبة في حشد ما يمكن حشده من القوات الايطالية وإزالتها إلى الميدان قد اقترح قبل موت فرديناند وطالب بعد موته بالحاح عقد حلف هجومي ودفاعي عن مشاريعه ضد آل بوربون ، ولكن فرانسوا كان لا يعبأ بالاستقلال الإيطالي وقد أقصت عنه طائفة الحاشية في البلاط نفوذ فيلانجيري ، حتى أنه سمى في الحريف إلى عقد حلف ضد ييمونته ، ولولا معارضة نابليون الثالث لأرسل

التواتر لاسترداد الروماني لحساب البابا ، أما مشروع اللاجئين والحالة هذه فلم يظاھره إلا فئة قليلة في نابولي ، ولم يكن في تلك المدينة إلا أشخاص قليلون يثقون بمض الثقة في الأسرة المقوتة ، فإذ لك عارض أنصار موراث القوميون السياسة التي تستهدف تقوية نفوذ آل بوربون ، وأصبح الجنوب بعد معاهدة فيلا فرنكة من جديد في الصف الأول من طلاب الوحدة إذ بذل أنصار الوحدة جهدهم في تقوية الفكرة القومية المترجربة وتثبيتها وجعلها مرتبطة بهم بعد أن فقدوا نفوذهم في حادثة فيلا فرنكة . وقد كان إجماع أحزاب الشمال على ملكية ييمونته ووضع طوسكانه واميليه ونفوذ غاريبالدي من العوامل الفعالة التي حملت القوميين في الجنوب على الانضمام إلى صفوف أنصار الوحدة ، وكان (قابرزي وكادريو) قد دبرا مؤامرة في صقلية وحث لا فارينا المنتمين إلى الجمعية القومية في صقلية إلى الثورة بعد فيلا فرنكة ، ودخل كريسبي الذي كان لا يزال جمهوري المبدأ الجزيرة متنكراً وأخذ ينظم الجمعيات السرية لإشعال الثورة في تشرين الأول ، بيد أن لا فارينا غير خطته بعد ذلك وطلب إلى رجاله التريث ربما تنضم إيطاليا الوسطى ، وعلى الرغم من وعد غاربا لدى لكريسبي بأنه سينجده فإن حركة العصيان قد فشلت ولم يحدث إلا تمرد جزئي بالقرب من باليرمو لكن كريسبي لم يقنط ، ورغم فشله في الحصول على مساعدة رتازي فإنه استعد لحركة جديدة في شهر نيسان المقبل ، وقد شجعه كافور

ورفقاؤه قليلا ، وكان مازينى مخمفياً فى جنوه فاشتترك فى المؤامرة وطلب إلى غاريبالدى أن يترأس الثوار إلا أن غاريبالدى لم يثق كثيراً فى نجاح ثورة شعبية لذلك اكتفى بالوعد باعطاء السلاح على أن يرفع الثوار الراية الملكية ، وكان مازينى قد اختار ، (روزاليوبيلو) ، الشريف الصقلى قائداً فى حالة رفض غاريبالدى ، فسافر بيلو بعد بضعة أيام مع رفيق واحد وقليل من المال ويحمل فى قلبه الأمل السامى فى تحرير صقلية ، ولما نزل إلى الجزيرة بالقرب من سينا كانت الثورة قد نشبت ، ودق ناقوس دير (ديلا جانسيه) فى بالرمو فى صباح ٤ — نسيان الدقات التى تؤذن بنشوب الثورة . ولما كانت الحكومة بالمرصاد فقد هاجم جنودها الدير ونهبوه واكتفت بالبرمو بمظاهرات تافهة ، أما الأطراف فلبت الندعوى ونارت وكان يصعب على الثوار أن يقاوموا مدة طويلة لذلك انقلب الجنود من متطوعة الألمان والسويسريين عليهم وانتقموا منهم شر انتقام ، فغضب أ كثرية لجنة جنوه على مازينى لأنه لا يريد أن يتبع أى سياسة سوى سياسته ، وعزمت على تسيير الأمور بنفسها واجبار غاريبالدى على الوفاء بوعد فوافق غاريبالدى على كره منه . وطلب إلى الملك أن يضع تحت تصرفه لواء من الجيش الملكى ، لأنه اقنع بأنه لا يستطيع أن يقوم بعمل مؤثر إلا بمعاونة كافور وكانت أفعال كافور وأطواره فى هذه الأزمنة متناقضة ولكن سياسته فى نهاية أذار أخذت تتجلى ولا سيما بعد أن بلغه

خبر الاقتراح القائل باحتلال الرومانى من قبل الجنود النابوليين .
وخشى أن تؤدي هذه الحركة إلى الاستيلاء على الرومانى فعلا فاعتزم
حالا بأن يعتبرها عملا عدائياً . وقد كانت سياسة كافور منذ
أربع سنوات ترمى إلى منع أى حركة تسبب انشقاق القوميين
واستغلال كل حركة من حركات الثورة ، ولا بد من أنه علم بأن
الثورة ستقع فى صقلية ؛ فذلك قرر أن يغمض عينه عما يقع فيها
وأن يدبر الحركة ولكن بصورة خفية بحيث لا تتحمل الحكومة
أية مسؤولية ، وأخذ يفتش عن قائد يترأس الحركة ولما لم ينجح
وعلم نبأ مراجعة غاريبا لدى الملك نسي الهجمات العنيفة التى وجهها
إليه يومئذ وأدرك بأنه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يخرج
من هذه الحركة ظافراً ، فأخبر لا فارينا بأنه سوف يمنح غاريبا لدى
كل المساعدة وسوف يجهزه بالبنادق المخزونة فى مخازن الجمعية
القومية ووافق على أن يستعمل غاريبا لدى البنادق التى اشترت
فى ميلانو بالمبالغ المجموعة بالا ككتاب .

وكان غاريبا لدى حينئذ على الساحل قريباً من جنوه وكان
يميل إلى الذهاب إلى نيسى سراً للشروع فى مقاومة بأسة ضد الإفرنسيين
ولكنه حين اتصلت الأخبار السيئة عن أحوال صقلية تردد
فى الأمر ، وتلقى كافور خبراً من مندوبه فيلا مارينا بأن الثورة
تبشر فى النجاح فى صقلية وكان يعلم بأن النمسة لن تتدخل وقد
طمأنه لا فارينا من ناحية إخلاص غاريبا لدى للعرش . ولما جست
جنوه نبضه فى ٢٣ نيسان قوى أملها على ما يظهر بأنه سوف

يساعدها . وبينما كان كافور يتردد في الأمر كان غاريبالدى يضطرب من التردد ويلوح له بأن واجبه الذهاب إلى المحل الذى يقاتل فيه الطليان مضطهدينهم ولكن وضع كافور يفزعه . ولما وصلت البرقية التى زورها كريسبي تحمل أخباراً سارة عن صقليه زال تردده وأعلن عزمه على الحركة طالما يتمكن . أما كافور فكان فى رأى آخر إذ أصبح يعتقد بأن إرسال قوة إلى الجزيرة إنما هو طيش وجنوب فالأسئلة أخذت تتوالى من الحكومات الأجنبية تسأل عن هذه الاستعدادات التى تجرى فى جنوه ، وكان كافور قد قال للسفير الإفرنسى بأن الحكومة صرفت النظر عن الحركة ، وفى هذه الساعة وصل إليه نبأ عزيم غاريبالدى على السفر فأوشك أن يضيع رشده ، وأسرع إلى بولونيه يطلب إلى الملك القبض على غاريبالدى ؛ أما الملك فلم يلب طلبه فأدرك كافور استحالة الوقوف دون الحركة بسبب هياج رأى العام فعزم على أن يهيبه كلها يقتضى سوقه من القوات لإنجاح الحركة . وذهب لافارينا إلى جنوه لتسليم بنادق الجمعية الوطنية ، ولكن لأسباب مجهولة لم يستلم غاريبالدى إلا بعضها ، وأرسلت التعليمات إلى السلطات الجمركية فى جنوه لتغمض عينها عن مرور الأسلحة ، وكان (برسانو) الأميرال البيمونتي قد تلقى أمراً بتوقيف القوة البحرية التى يقودها غاريبالدى إذا رست فى ميناء ساردينى ، لأنه كان يعلم بأن كافور إنما كان يرمى بذلك الأمر ذر الرماد فى العيون ، فلذلك رأى سفينتى غاريبالدى تمخران البحر من دون أن يقلقهما .

الفصل الثلاثون

غاريبالدى فى صقلية

أيار : آب - ١٨٦٠

فى اليوم الخامس من أيار تركت الحملة الصغيرة جنوه فوق
باخرتين ، وقد طلب الالتحاق بها كثيرون إذ أن لجنة جنوه التى
يرأسها برتانى وسمة غاريبالدى قد جذبتا المتطوعين من جميع أنحاء
إيطاليا ولقى غاريبالدى صعوبة عظيمة فى تقليل عددهم إلى ألف
رجل ونيف ليستطيع أن يأخذهم معه على الباخرتين ، وكان معظم
هؤلاء من إيطالى الشمال فكان بين ألف وسبعين من ذوى القمصان
الحرّاء ثمانمائة وخمسون من أهل لبارديه وأميلييه وفنيسييه ، وكانت
هذه المعصبة تتألف من خليط من الوطنيين القوميين والمفاصرين
الذين تربطهم بغاريبالدى رابطة الإخلاص له والشجاعة الفائقة .
وكان شرف تهيئة هذه الحملة يعود إلى إقدام لجنة جنوه ولبرتانى
وكريسبى ومازىنى الذين استطاعوا بإيمانهم القوى أن يتغلبوا على
تردد غاريبالدى وأن يجبروا الملك وكافور على السير وراءهم . وكان
إعداد الحملة يومئذ تديراً محفوفاً بالمخاطر لا يقدم عليه إلا الشجعان

المغامرون ، وكان لآل بوربون في صقلية ثلاثة وعشرون ألفاً من الجند ومائة ألف وغيرهم في القارة مع مدفعية قوية وقلاع يكاد يتعذر اقتحامها ولعلنا لا نجد في أوروبا كلها رجلاً ما عدا غاريبالدى يستطيع بهذه النواة الصغيرة ومن دون مساعدة ، وفي هذه الظروف أن يقاتل وأن ينتصر على قوات فائقة ساحقة . حقاً لقد خلقت سفرة الألف إيطاليا خلقاً جديداً ، لقد توجهت السفينتان نحو الجنوب سالكتين طريق الساحل ترمقهما أنظار جميع الإيطاليين وتتجه نحوهما أفئدة الأمة في قلق عظيم ، ذلك لأن القوة لم تأخذ معها ما يكفي من العتاد لسلاحها لأسباب لعل باعثها الخيانة ، حتى لتكاد الحملة تصبح بلا سلاح . وقد أمر غاريبالدى رجاله بالوقوف في الميناء الطوسكاني الصغير (بالامونه) ليتلافى فيها النقص في العتاد أولاً إذا استحصل على ما يحتاج إليه من العتاد وثلاثة مدافع وأراد بالوقوف ثانية أن يلبي رغبة مازيني ورفقائه في إرسال قوة إلى الممتلكات البابوية في الوقت الذي تذهب فيه الحملة إلى صقلية ، وكان يتوقع بهذه الحركة أن يلفت أنظار عدوه إلى هذه الناحية ويخفى الهدف الأصلي الذي استهدفه من رحلته . وقد نزل إلى الميناء ستون رجلاً بقيادة الضابط (زمبيانكي) وكان يتوقع بلا ريب أن تصل إليه التجديدات من طوسكانه وأن يتحرك كوزنسي ومديجي من جنوه بعده بقوات كبيرة . ومع أن غاريبالدى كان يجهل بلا شك خبر المفاوضات التي كانت تجري

لإخلاء الإفرنسيين ممتلكات البابا فإنه لابد أدرك المكاره التي ولدها للحكومة بحركته هذه ، وكان من جراء تصلب مازيني في مغامرته الجديدة ومساعدة غاريبالدى له أن تأجل إخلاء الحامية الإفرنسية للممتلكات البابوية ، واضطرت إيطاليا أن تنتظر عشر سنوات أخرى لإتقاذ روما . وما كاد خبر إزال القوة يصل إلى كافور حتى أرسل أوامر شديدة إلى ريكاسولى يأمر فيها بأن يحول دون خرق حياد الأراضي البابوية ، بيد أن الشعب كان متحمساً للحركة فاجتاز زمبيانكي الحدود في ٢٠ أيار ، ولكن قوات البابا هاجمته وأرجعته إلى أرض طوسكانه حيث جرده ريكامبولى من السلاح وأوقف جماعته .

ووصل غاريبالدى إلى مارساله في ١١ أيار وقد استطاع أن يتملص من السفن الحربية النابولية عرض البحر ولكنه ما لبث أن اقترب من الساحل حتى شاهده طرادتان تعقبته على مقربة منه حتى دخوله الميناء ، ولو استطاعت الطرادتان أن تحسنا صب نيرانهما وتوجيهها لما استطاع نصف الحملة النزول إلى البر ، وبينما كان يتقدم غاريبالدى نحو باليرمو كان (لاماسا) يبذر بذور الثورة في الأنحاء الريفية وأخذ رجال (السكوادرة) الباقون من ثوار ديللا جانسية يصلون إليه زمرا . وفي اليوم الخامس عشر من أيار قابل غاريبالدى في منتصف الطريق القوات النابولية التي احتلت قبل ذلك موضعاً منيعاً ، وكان معه ثمانمائة رجل من أتباعه وألف

وخمسمائة من عصابة السكوادرة الذين يعوزهم السلاح وينقصهم الضبط ، بينما كانت قوة عدوه تبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي كامل المعدة جيد الضبط ، ومع ذلك فقد تغلبت شجاعة الوطنيين على كثرة الجند النابولي ، وبعد قتال عنيف استمر عدة أيام استولى غاريبالدى على موضع العدو الذى كان يدافع فيه عن باليرمو إلا أن الموقف كان لا يزال حرجاً للغاية رغم تحرر وسط الجزيرة وإرسال نجدة مؤلفة من خمسة آلاف رجل إليه ، لم يكونوا سوى عصابات ينقصها النظام وينتابها الذعر بسهولة ، ولا يزال ينتظره فى باليرمو عشرون ألفاً من الجيش النابولى النظامى ، وكان تفوق القوات الملكية من حيث العدد والسلاح والضبط حتى إنها تستطيع بقيادة أى قائد أن تسحق عصابة الأبطال الصغيرة هذه دون عناء ، وأدرك غاريبالدى بأن مخرجه الوحيد من هذا المأزق هو القيام بحركة جريئة فذة تغلب على القوات المتفوقة ولما لم يجرأ على مهاجمة المدينة قام بحركة التفاف ووصل بعد مسير يومين على قوس طويل فى الجبال إلى ميسلميرى الواقعة جنوب شرق المدينة ، بينما كان عدوه يسير فى رتلين نحو الجنوب باتجاه خاطئ ، وكانت خطة غاريبالدى ترمى إلى مهاجمة المدينة ليلاً يقيناً منه أنه إذا ما دخل المدينة فستصبح الدور معاقلاً له وتسرع الجماهير لمساعدته ، ولما فشلت خطته فى ضبط المدينة بغتة بسبب دعر جماعة السكوادرة شرع بالهجوم فوراً ، واستولى على ميناء ترمينى فى صباح ٢٧ أيار ،

وأخذت نواقيس الكنائس تدق داعية الناس إلى القتال وأخذ الشعب يتحرك ويثور ، واستطاع غاريبالدى بذلك أن يحتل المدينة خطوة بعد خطوة إلى أن أقصى جنود نابولى الذين لجأوا إلى قلعة (كاستل ماره) وماجوارها وإلى بعض المباني المنفردة في أطراف القصر . وكانت مذبحة هائلة وصفها أحد الحاضرين بقوله : (لقد ضبط كل ما بقى تحت وابل مدرار من القنابل واستولى على كل قدم من الأرض في لظى اللهب المتأجج وطققة الدور المتداعية وعويل المصابين الذين ينشدون آلا فلات من الانقراض وصيحات الضحايا الذين ذبحهم الجنود الضواري حين لاذوا بالفرار) .

وانقطع القصف صباح ٢٩ — أيار لمساعدة الحامية على القيام بحركة خروج ، بيد أن الهجوم الذي قام به الجند توقف أمام المتاريس ووهنت غريزة قائد الحامية وفقد شجاعته . وبعد قتال استمر أربعة أيام طلب قائد الحامية إلى قائد الأسطول البريطاني الراسى في الميناء التوسط ، وتلقى غاريبالدى طلب إيقاف القتال تمهيدا للهدنة بلهفة ، ووافق على مهلة أربعة وعشرين ساعة ، ولما انقضت هذه المدة طلب قائد الجنود تمديدتها للاتصال بنابولى ، ولما علم الملك بأن سبيله الوحيد إنما هو التفاهم مع إنجلترا وفرنسه ، أرسل أمراً بإخلاء المدينة ، وفي ٢٠ حزيران ركب آخر جندي السفينة منادراً الجزيرة ، وقد انتشرت الثورة في الجزيرة كلها قبل ذلك التاريخ . وبحركة غاريبالدى هذه تحررت الجزيرة من الحكومة

ما عدا مسينه وسيرا كوزه اللتين كانتا تخافان القصف من قبل الأسطول النابولي وقلعة ميلانو وأوجوسته . إن هذه الحركة ترينا كيف تغلب ألف رجل على أربعة وعشرين ألفا من الجنود في شهر واحد واستولوا على جزيرة يبلغ عدد نفوسها مليونين .

وانهار في الجزيرة ذلك الاستبداد الذي يكمن الشر والفساد في طياته ، وكان تأسيس حكومة تحمل محل ذلك الاستبداد من أشق الصعوبات ، ذلك لأن الصقليين رغم كونهم استقبلوا الثورة بكل جوارحهم وبترحيب قلبي عظيم ، حتى أن الاكليروس نفسه انضم إلى القضية العامة ، وتجهول الرهبان والحوارة في الجزيرة يمشون بالحرب المقدسة . لم يكونوا على استعداد لتقديم تضحيات وحسبهم أن جزيرتهم تحررت ، وأنهم تخلصوا من النابوليين البغيضين . أما الوحدة الإيطالية فلا تهمهم كثيرا ، وقد وقف الأغنياء الأثافيون موقف المتفرج تملأ نفوسهم الريبة من حاشية غارibaldi . وفشل مشروع التجنيد الذي رسمه غارibaldi أمام مقاومة الشعب السلبية ولم يجتمع لديه سوى ألف من المتطوعين : وأخذ جماعة السكواردة يطالبون برواتبهم صاخبين ، فاضطر غارibaldi إلى تسريحهم وإعادة تنظيمهم . وكانت الحكومة المركزية عاجزة كل العجز ، وكانت توجد عناصر خطيرة في باليرمو نفسها ، وقد فتحت أبواب السجون أيام القتال ، وأخذ المجرمون يتجولون في الطرقات ، ويهددون خصومهم

الشخصيين . ولم ينقذ صقلية من فوضى الجرائم التي تعقب الثورات إلا سمعة الدكتاتور المطلق التصرف وحدها .

حقا لقد عجز الديموقراطيون عن تأسيس حكومة في الجزيرة ، وكان كريسبي الذي أصبح الرئيس الحقيقي في الحكومة لا يزال مجهل قيادة الناس ، لقد كان عنيدا نشيطا ، ولكن لم يكن محبوباً من الناس إلا قليلا ، وكان من الرجال الذين يستطيعون أن ينجزوا عملا كثيرا ، وربما كان الشيء الكثير أقرب إلى الإساءة منه إلى الصلاح . وقد فشلت مساعيه في تأسيس حكومة من الهواة ، وعلى الرغم من أن الشعب أظهر كل احترام ومحبة نحو غاربيالدى ، فإنه لم يقدم على نادية الضرائب ، وأصبح غاربيالدى دكتاتورا بالاسم ، وألعبه بيد الرجال الذين اعتمد عليهم ، واكتفى بالتوقيع على الأوراق التي يضعها كريسبي أمامه . وأخذ كريسبي يغمر البلاد بقوانين جديدة زادت في الارتباك ، فسدت المحاكم أبوابها أو كادت بعد أن أقصى القضاة من مناصبهم ، وأحدثت أخبار الفوضى في الجزيرة قلقا عظيما في نفس كافور . وقد هبت العاصفة السياسية الأوربية إلا أنها لم تكن مخيفة كما توقع كافور أن تكون ، إذ اقتصر الأمر على إنذار من روسيا تقول فيه إن موقعها الجغرافي وحده هو الذي حال دون تدخلها ، أما إنجلترا فكانت كثيرة العطف على الحركة ، وأما فرنسه فقبلت اعتذار كافور بكون الحكومة لا تستطيع أن تحول دون حركة غاربيالدى من دون أن تعرض

للخطر الشديد ؛ فإذلك قرر كافور بعد قليل من التردد تسهيل سفر النجيدات الخصوصية . وقد توقع أن يعبر غاريبالدى بعد بضعة أيام إلى كلبريه ، فوافق في نهاية شهر حزيران على تجهيز النجيدات المرسلة إلى غاريبالدى بالسلاح المخزون في دار صناعة الحكومة في جنوه . ومع ذلك فإن كافور ظل متردداً بين إسداء المعونة إلى حدها الأقصى والسير إلى آخر الشوط ، والتملص من تبعمة الحركة بتضحية غاريبالدى إذا اقتضت مصلحة الحكومة ذلك ؛ أما فيما يتعلق بالاعتداء على ممتلكات البابا فإنه كان يرغب في عدم التدخل ، ولذلك أقنع مديجي وكوسن بالكف عن نيتهما بشأن أومبريه على الرغم من أوامر غاريبالدى لهما وسوقهما النجيدات إلى صقلية . وأدرك كافور أن الحركة الديمقراطية العادية للملكية البيمونتية قد تفرق صفوف القوميين وتؤدي إلى حرب أهلية ، وقد ينحرف الناس في تيار الجمهورية ، فعقد النية على توقيف تلك الحركة في بدئها ، وأوفد لافارينا إلى باليرمو لكي يقوى غاريبالدى ضد النفوذ الديموقراطى ، ويتولى تنظيم شؤون الحكومة ويعمل في الانضمام .

وكان كريسي في باليرمو وبرتاني في جنوه يبذلان جهدهما ليحولا دون الانضمام المطلق . أما غاريبالدى فكان يعتقد بأن إيطاليا تحتاج إلى دكتاتور نزيه ولو إلى حين ، ولاح له أن يؤجل أمر الانضمام ريثما يكمل مهمته ، وأخذ يقتنع بأن السياسة الخارجية

قد تتدخل فيما إذا استلم فيكتور عمانوئيل حكومة الجزيرة وقد تمنعه من العبور إلى القارة لإكمال مهمته في توحيد إيطالية . أما كافور فلم تكن نفسه تتوق لضم الجزيرة فحسب ، بل بضم نابولي أيضاً حالما تسنح الفرصة . ومما يؤسف له أن اختيار لا فارينا المهمة التي أنيطت به لم يكن موفقاً ، ذلك لأنه كان عدواً شخصياً لكريسي وكان الحزب الديموقراطي يكرهه وكان من السهل إقناع غاريبالدى الدكتاتور بأن الرجل الذى وقع على وثيقة التخلي عن نيس مسقط رأس غاريبالدى لا يمكن أن يكون صديقاً له ، وقد كان أول عمل قام به لا فارينا أن هاجم حكومة كريسي بشدة ونشب الجدل بينهما ، وبذلك سيطرت الحزازات الشخصية وعبثاً حاول غاريبالدى الاحتفاظ بصاحبه واضطر أخيراً إلى إقصاء كريسي بعد أن رأى مناصرة الرأى العام لفارينا ، بيد أن كريسي ظل الرجل المسموع الكلمة لدى الدكتاتور ولذلك امتنع غاريبالدى عن الموافقة على الانضمام مع أنه سبق فأراد الحركة نحو روما ليستولى عليها ويحملها عاصمة إيطاليا الموحدة وأخيراً أبعد لا فارينا من الجزيرة .

فغضب كافور لهذا العمل غضباً شديداً وأبذر غاريبالدى فى أواخر حزيران بمنع سفر النجديات فيما إذا ظل كريسي الديموقراطى المفرط وكيلاً له ، ولم يكد لا فارينا يرجع إلى تورينو حتى منع المخازن من تقديم التجهيزات الحكومية إلى غاريبالدى على أن

كافور لم يكن شديد الرغبة في معاكسة غاريبالدى أملاً في الاستفادة منه ، فأوفد (دبيرتيس) بعد أن استطلع رأى غاريبالدى فوافق عليه لأن دبيرتيس كان قد استقال محتجاً على التخلي عن نيس ، وقد نجح دبيرتيس بالقيام بإصلاحات عظيمة في الإدارة وخطا نحو الوحدة في إدخاله القوانين البيمونتية إلى الجزيرة ، خطوات واسعة وأراد كافور أن يتعاون دبيرتيس مع كريسي ، ولما عاد هذا للعمل اشترط بأن لا يبحث في الإلحاق ما لم تتحرر نابولي . وتقصير كافور هنا أنه لم يعمل بعزم ، فلو أمر بإجراء الاقتراع العام في الجزيرة للانضمام أو ضده لوفر على إيطاليه كثيراً من الجهود والمتاعب ولتقبلت أكثرية الجزيرة هذا الطلب بارتياح بيد أن مثل هذه السياسة الجريئة كانت تتطلب رجلاً أكثر عزماً من دبيرتيس .

وبث نجاح غاريبالدى الفرح في جميع أنحاء إيطاليا وأصبح مطمح أكثر الفتيان أن يجاهدوا تحت رايته ، وقد تجند من بولونيا وحدها كما قيل سبعة آلاف وهرب جنود ييمونتيون من وحداتهم للالتحاق به ، وسارع الطوسكانيون الذين كانوا يكرهون التجنيد من كل حذب وصوب للالتحاق بقوات مديجي وكوستر ، وأخذت الاكتتابات لشراء مليون بندقية تتدفق وأظهر برتامن في جنوه كفاية عظيمة في تنظيم النجيدات والامراع في إرسالها . ووصل إلى صقلية قبل ٣٠ - تموز أكثر من

تسعة آلاف رجل وحدث أن اصطدم مديجي بقوات يوسكو قائد الجند نابولي بالقرب من ميلازو في ١٧ — تموز فأسرع غاريبالدى إلى ارسال جميع الرجال الذى استطاع أن يحشدهم وهاجم موضع يوسكو الحصين فى برزخ ميلازو ، وحدثت فى ٢٠ تموز معركة عنيفة وكان جنود نابولى قد تحصنوا وراء الجدران والأسياج ولكن رجال غاريبالدى استطاعوا بعد قتال شديد أن يحتلوا المدينة فالتجأ يوسكو إلى القصر ، ورغم أن غاريبالدى لم يكن يملك مدافع حصار فقد استولى على القصر بعد ثلاثة أيام ثم أخلى جنود نابولى سبيل كوزه وأوجسته ولم يبق فى الجزيرة بيد آل بوربون سوى قطعة مسينة .

ولم تقتصر اجتياح الحماسة التى ولدها غاريبالدى على الفتيان الذين سارعوا للانضمام إليه فحسب ، بل انجرف فى التيار رجال عرفوا بالرصانة من أمثال دازجليو ولا نزا وقد كتب كافور فى رسالة له : (إن أكثر الرجال تعقلا ورصانة وأشد المعتدلين والمحافظين أصبحوا من أنصار الوحدة) . وكان خوفهم تلاشى رويداً رويداً كلما اتضح لهم أن بلادهم سوف تصبح مملكة متحدة كبيرة ، وقد طلب ريكاسولى إلى كافور بأن يكف عن سياسته المترددة وأن يفسح للملك المجال ليتزعم الحركة بشجاعة ، بيد أن المصاعب كانت ترمى أكثر مما تصورها ريكاسولى وكانت خطة كافور فى السياسة الخارجية أن لا يقطع الجبل ما استطاع

إلى ذلك سيلا ، وكان يحسب خطر هجوم النمساويين حساباً عظيماً ويخشى ألا تستطيع إيطاليا وحدها الوقوف بوجهه من أجل ذلك كانت فكرة الاحتفاظ بعطف الإمبراطور عاملاً أساسياً في سياسته الخارجية .

وأوشك فرانسوا ملك نابولي بعد موقعة باليرمو أن يقطع أمله في التغلب على قوات غاريبالدي فالتمس من نابليون بأن ينقذ عرشه المترجرج بالتوسط بينه وبين الثوار ، ولكن الإمبراطور رفض التوسط ما لم تنل الجزيرة استقلالها التام ، وأن يحكمها أحد أمراء آل بوربون ، وأن يمنح الدستور النابولي ويتحالف مع ييمونته ، وكان الشرط الأخير الذي أصر عليه الإمبراطور أقصى الشروط على فرانسوا ، لأنه هو الذي أقام الدنيا وأقعدھا لتضرب ييمونته في الروماني ، وبذل جهوداً جبارة ليتجنب ذلك الشرط الذي يحمله على الخضوع لخصمه البغيض ، وقد يزرجه في حرب مع النمسه . وحيث إن وزراءه فقدوا كل شجاعتهم فقد أشاروا عليه بعد قليل من التردد بالموافقة على طلبات الإمبراطور ، وقد وافق عليها طالبا تبديل الاستقلال التام في الجزيرة بالحكم الذاتي ، وضغط الإمبراطور على كافور لقبول الشروط ، وسعى لإقناع الحكومة الإنجليزية بإقرار هذه التسوية مقترحا عليها عقد هدنة ، وإرسال الأسطول إلى مضيق مسينه لمنع قوات كافور من عبوره . ولما كان الرأي العام في ييمونته يمارض في شدة فكرة مخالفة نابولي فإن

كافور قرر إحباط المفاوضات ، إلا أنه لم يشأ أن يرفض جهرا وصايا الإمبراطور . وفي اليوم الذي أبدى ميله بقبول فكرة الحلف مع نابولي كان يود لو أن غاريبالدي اجتاز المضيق ، لذلك وضع شروطا كان يعلم أن فرنسوا لن يقبلها . ولما طلب الامبراطور إلى الملك بأن يبذل نفوذه لمنع غاريبالدي من الحركة وافق كافور على ان يكتب الملك للدكتاتور كتابا في هذا المعنى على أن لا يقوم فرنسوا بأى عمل لاسترداد صقلية . وقد أصر على هذا الشرط لأنه كان يعلم بأن إنجلترا تعطف عليه ، أما فرنسوا فسرعان ما تخلى عن بطولته لحماية ممتلكات البابا وعرض على بيمونته تجزئة تلك الممتلكات بينه وبين بيمونته ، فلم يسع كافور بعد ذلك أن يؤجل إرسال الكتاب ، وحمل الملك على الكتابة إلى غاريبالدي في ٢٢ — تموز يدعو إلى التخلي عن نياته بشأن نابولي إذا أراد فرنسوا أن يترك صقلية حرة ، وكتب الكتاب في أسلوب يحمل غاريبالدي على رفض الطلب حتما كما أن كافور أفهم غاريبالدي بأنه يتلقى رفض طلب الملك بالترحيب . وقد رفض رؤسُ مقترحات الامبراطور لارتياحه من نياته بشأن ساردينيه ، وأيقن نابليون بأن انهيار آل بوربون أصبح أمرا لا بد منه ، وأرسل الأمير نابولي كتابا سريا إلى غاريبالدي يذكر له فيه أن الامبراطور يوصيه بأن يتحدى السياسة بالأمر الواقع . وهكذا نجح كافور في سياسته . فغاريبالدي سيرفض حتما تلبية أوامر الملك ، ولن

يقوم الافرنسيون بأى عمل ليحولوا دون عبور المضيق . ولما كان كافور لا يزال يشك فى إخلاص غاريبالدى للملكية ويخشى أنه إذا ما نجح فى مشروعه أن يخضع لإيحاءات الديموقراطيين المتطرفين ، وأن يتمتع من سماع وصايا الحكومة البيموننتية وحينئذ تسوء الأمور فى الجنوب كما ساءت فى صقلية ، وقد تودى إلى انشقاق بين الشمال والجنوب ربما ينتهى إلى قيام الملكية فى الشمال والجمهورية فى الجنوب ، فقد فكر فى اجتناب ذلك كله لو استطاع أن يسبق غاريبالدى فى العمل بحمل أهل نابولى على الثورة ، وإعلان رضائهم بالانضمام قبل أن يصل الدكتاتور إليهم ، وإذا ما نار النابليون من أنفسهم فإن كافور يستطيع ساعتئذ أن يسوغ تدخله أمام الدول ولا حاجة إذن لمفاوضة آل بوربون .

وكان قوى الأمل بأن تلبى نابولى الدعوة وما أسرع ما نهض الحزب البيموننتى من خموده وأظهر نشاطه وقوته ، ولما أعلن فرنسوا الدستور فى ٢٥ حزيران ملبياً دعوة الامبراطور قابل الناس هذه المنحة بالاستخفاف ، وكانوا يعلمون بأنه هذه هى المرة الخامسة يمنح فيها آل بوربون الدستور ، وأخذت (لجنة النظام) التى تألفت فى نهاية ١٨٥٩ لتأمين الضبط بين الجماعات القومية المختلفة تراسل مع لافارينا وبرتانى . وكان كافور يعتمد كثيراً على التآمرين الموجودين فى مركز الحكومة نفسها ، وكان بعض الموظفين يخونون الدولة سراً لمصلحة الجمعية القومية حتى أن (نوزيانتة)

أحد القواد الذين يثق بهم فرنسوا كل الثقة وعد كافور بأن يحرض القطعات على مخالفة أوامر آل بوربون ، ثم إن عم الملك دوق سيرا كوزه اشترك مع نوزيانتة هذا في المؤامرة ، وكان (ليوريو رومانو) وزير الداخلية من أخطر التأميرين ، إذ كان المسيطر الحقيقي على المدينة بعد أن نظم حرساً قومياً فيها واتصل بجمعية كامورا . وكانت هذه الجمعية بعد أن خدمت الاستبداد لمصالح خاصة ، عادت فباعت نفسها لمعاوضة الثوار واستطاع رومانو هذا بحركة جريئة أن يبدل الشرطة برجال الكارامورا .

وما أن فشلت المفاوضات بشأن الحلف حتى أوعز كافور في ٣ — تموز إلى ممثل بيمونته في نابولي (فيلامارينا) بالاتصال مع التأميرين ، وفي اليوم ذاته أمر الأميرال برسانو بالسفر إلى نابولي بقسم من أسطوله وإزالة شحنة من البنادق خلصة بالاتفاق مع رومانو . وبينما كانت لجنة النظام تهى ثورة شعبية برعاية رومانو كان نوزيانتة يحوك الدسائس في الجيش بنشاط ، ولكن التأميرين أخبروا في ٢٣ آب كافور بأن مساعيهم في كسب الجيش قد حبطت وأن العصيان في العاصمة أمر مشكوك فيه ، ولكن الأيالات أخذت تتعامل وأرسلت بعض البنادق البيمونتنية إلى باسيلكانه ، وأعلنت (كورليتو) الثورة في ١٦ آب وفي اليوم الثالث نصبت بوتنزه قاعدة الأيالة حكومة مؤقتة باسم فيكتور عمانوئيل وغاريبالدى وما أن أبحر غاريبالدى المضيق حتى امتدت الثورة إلى (آبولي)

في الشرق و (سالييرنه) في الغرب ، وقبل أن يجتاز كليريه أضاع آل بوربون ملكهم واجتمع عشرة آلاف متطوع تحت السلاح ولكن نابولي ظلت هادئة واشتد الشقاق في لجنة النظام بين المعتدلين والديموقراطيين حتى أدى إلى فقدان التعاون النزيه ، الأمر الذي شل جهود اللجنة . وبينما كان أصحاب كافور يريدون طرد فرنسوا توأ والاستيلاء على الحكم باسم فيكتور عمانوئيل كان العنصر الديموقراطي المتطرف قد انشق وألف لجنة عمل بتحريض مازيني ، واستهدفت توقيف الحركة إلى حين وصول غاريبالدي ، لينال غاريبالدي وحده شرف طرد آل بوربون ، ولتصبح الحكومة في قبضه يدهم . ولما اقتنع كافور بعدم إمكان نشوب ثورة في نابولي ، فكر في الخطة التي ربما احتفظ بها لتنفيذها عند الضرورة . وكانت هذه الخطة حاسمة جريئة ذات خطورة ترمى إلى فتح إيطاليا بأكملها وإعلان ملكية فيكتور عمانوئيل فيها ، ولا سيما بعد أن خشي زيادة نفوذ الديموقراطيين المتطرفين وارتاب من تفاقم سيطرة غاريبالدي . وعليه فليس من سبيل للاحتفاظ بمكانة بيمونتيه وضمان بلوغ أهدافها إلا أن تكون في الصف الأول من الجهاد ، وقد قال كافور : « إذا لم نكن نحن في فلتورنه ^(١) قبل أن يصل غاريبالدي إلى كاتوليك ^(٢) فستنهار الملكية » . وقد رسم منهجا للعمل يقضي بإيفاد حملة كبيرة لفتح أومبريه والمارك ابتغاء

(١) اسم نهر في جنوب إيطاليا في مملكة نابولي .

(٢) اسم مدينة بالقرب من روما .

اكتساب جيش الملك الصيت الحسن ، ولسحق قوات القائد
الإفرنسي لامورسيير ، والقضاء على أنصار آل بوربون ، وتقضى
الخطه بإيفاد الملك إلى نابولي على رأس قوة كبيرة إذا اقتضى الأمر
لإبقاء غاريبالدى فى الصف الثانى .

وكانت هناك أسباب أخرى تستدعى اتخاذ هذه الخطه ،
فلا يزال لدى آل بوربون جيش قوى يبلغ مائة ألف جندى ،
يضاف إلى هذا أن لامورسيير قد يعير قسما من جنوده لتقوية
الجيش البوربونى ، فيضطر غاريبالدى إلى خوض غمار قتال عنيف
قبل أن يصل إلى نابولي ، وعمت ايلات البابا النعمة من سوء
تصرف المتطوعين ولا سيما الايرلنديين المغرورين الفاقدى النظام ،
وكان المتطوعون القوميون فى الرومانى وطوسكانة متحفزين
لاجتياز الحدود ، وقد سعى مازينى طول الصيف فى نشاط عظيم
للقيام بحركة زحف نحو أومبريه وكان لديه ستمائة رجل فى جنوه
وألف رجل فى الرومانى ، ومثل ذلك فى (سيجنه) بقيادة الجمهورى
(نيكوتيرة) . وقد وعد ريكاسولى بتجهيز رجال مازينى بالبنادق
إذا لم يعارض كافور ذلك وقد رحب غاريبالدى بهذا المشروع من
كل قلبه موقناً بأن جيوش الثورة ستزحف نحو روما ، ولما
اطلع كافور على ذلك ، كانت الانذارات الصاخبة الأجنبية قد
أفرغته ، بيد أنه كان يريد أن يظل مصانعاً لرجال غاريبالدى من
جهة وأن يستخدم متطوعى طوسكانة لتنفيذ خطته الخاصة من جهة

أخرى ، وقد اتصل بالملك ورجاه أن يوافق على تحريك الحملة ووعدته بأن يضمن على مسئوليته عدم الهجوم على أى موقع فيه قوات إفرنسية ، ولكن لا فارقنا أجابه باسم الحكومة بأنها لا توافق على حركة المتطوعين من جنوه للنزول فى سواحل البابا أو طوسكانة بأى صورة كانت ، ولكن هذه القوة تستطيع أن تسافر بمفرزات متفرقة صغيرة على أن تجتمع فى خليج (أرانكى) بالقرب من ساردينيه على أن تمر أولاً من صقلية ، فوافق برتاني على هذه الشروط ولم يبت فيما يتعلق بالمتطوعين فى سيجننه ، ثم سافر على رأس قوته معترماً خرق العهد إذا تمكن من ذلك واثقاً بقدرته على إقناع غاريبالدى بأن يتولى قيادة المتطوعين وتوجيههم نحو (الأهداف المطالبة) ، وقد ذهب مازينى إلى فلورنسه من دون أن يكون له علم بذلك العهد وقرر بالاتفاق مع نيكوتيره اجتياز الحدود والهجوم على بيروزه . ولما اطلع كافور على هذه الأخبار خشى عاقبة هذه الاختلاطات واتخذ التدابير الصارمة ضدها ، فأصدر فارينا بلاغا شديدا للهجة منددا بكل من يتدخل فى شؤون الحكومة ، كما أنه لم يساعد المتطوعين على الحركة ، وأوعز إلى كافور وريكاسولى بأن يسرح رجال نيكوتيره فوراً . بيد أن ريكاسولى احتج على هذه الشدة المفاجئة ، ثم تفاهم وكافور على أن يجرد المتطوعين من السلاح بهدوء ، ثم تتولى الحكومة تفسيرهم إلى صقلية . وقد قوت هذه الحادثة من دون شك اقتناع كافور

بضرورة الإسراع في الحركة ؛ ولكنه كان يقدر أهمية عواقب هذه الحركة والعقبات التي تقف في وجهه ، فهو إذا شرع في تنفيذ برنامجه من دون موافقة الإمبراطور فإن ذلك سيؤدي إلى بقاء الإفرنسيين في روما مدة غير معينة ، وقد يصبح الجيش الإيطالي وجهها لوجه أمام القوات الإفرنسية ، بينما تترقب النمسة الفرصة لجمع الأسلاب ، ثم أنه إذا استطاع أن يكسب موافقة الإمبراطور فسيواجه خطرا آخر أشد ؛ إذ بينما تقاتل أحسن القوات الإيطالية في الوسط قد تنتهز النمسة الفرصة للهجوم ، وإذا انضم الإفرنسيون ولامورسيير بقواتهم إليها وسحقوا غاريبالدي فسيتبقى الجيش الإيطالي بين قوات عظيمة في الجنوب والجيش النمسوى في الشمال ، وكانت الخطوة الأولى التي خطاها كافور لانتقاء شر النمسة وفرنسه بالحصول على موافقة الامبراطور ، فأوفد إليه في شامبره فارينى وجيالدينى لحس نبضه ومعرفة آرائه بشأن أومبريه ، وقد قال له في ٢٨ - آب بأن الثورة على وشك الانفجار وأن نجاح غاريبالدي يندرج إيطاليه كلها في جحيم الثورة ، وأن الخطر لا يمكن اجتنابه إلا إذا سبق فيكتور عمانوئيل غاريبالدي وزايد بالثمن باحتلاله إيطاليه الوسطى ، ووعدا الامبراطور بأنه إذا وافق على حركة الاسنيلاء فإن حكومة ييمونته تعتبر روما بلدا مصونا ، ولعلمها تعهدا بأن لا يتوغل الجيش البيمونتي في أرض البابا ما لم تنشب ثورة فيها . وكان نابليون على استعداد لأن ينصت إليهما ،

ولامبيا لأن تعنت البابا كاد أن يفقد الامبراطور رشده ، وكان يعلم بأن جيش لامورسيير أصبح عشا للمؤامرات ، وتوقع أن يؤدي تقدم البيمونتيين إلى فزع البابا واضطراره إلى الهروب وبذلك يزول السبب في بقاء الجنود الافرنسيين . من أجل هذه الاعتبارات كلها أبدى الامبراطور موافقته ورضاءه ، ورجع فارينى وجبالدينى إلى تورينو في ٢٩ - آب ، وفي ٣١ - آب قررت الوزارة الشروع بحركة الاستيلاء على أن تنشب الثورة في ١٨ - أيلول فيجتاز الجيش البيمونتي الحدود حالما تنشب ، وحجته في ذلك منع إعادة مجزرة بيروزه ، وقد قال كافور عقيب اتخاذ هذا القرار : « أن ستكون إيطاليا بعناية الله قبل انقضاء ثلاثة أشهر » .

الفصل الحادي والثلاثون

الحاق الجنوب

آب — ١٨٦٠ : شباط — ١٨٦١

استلم غاريبالدى كتاب الملك ، فأجاب عليه بأن الوعد الذى قطعه لأهل نابولى يحول دون تلبية أوامره ، وقد عسكر رجاله بعد ظفر (ميلازو) على ضفاف مضيق مسينه ، وكانت طرادات نابولى تراقب البحر ، ولكن مفرزة بقوة مائتى شخص استطاعت فى ٨ — آب اجتياز المضيق إلا أنها اضطرت إلى الانسحاب إلى (اسبرومونته) . وبعد بضعة أيام قدم برتانى وفهم منه غاريبالدى أن الحملة التى أعدت لبريطانيا الوسطى تعسكر فى خليج (أرانجى) وعلم غاريبالدى فى الوقت نفسه أن الحكومة جردت نيكوتيره من السلاح ، واعتزمت إرسال قوات للمارك ، ولما ضاق ذرعا بالبقاء عاطلا ذهب إلى ساردينه لتسخير القوة العسكرية فيها فى حركة ضد نابولى ، ولكن علم حين وصل إلى الخليج أن قسما من القوة قد سافرت ، فعاد أدراجه إلى باليرمو مصمما على اجتياز المضيق .

وفي ٢٠ — آب أزل أربعة آلاف رجل قرب (ميلتو) في منتهى المضيق الجنوبي واحتل (ريجيو) عنوة . وكانت ترابط في كلبريه قوة مؤلفة من (٣٠٠٠٠) من جنود نابولي ، إلا أنه كان يتوقع أن يتغلب عليهم بحركاته الجريئة السريعة كما فعل في صقلية ، وبالفعل لقد فاز بأكثر مما كان يتوقع ؛ وفي سان جيوفاني سلم تسعة آلاف من جند نابولي أنفسهم طائعين بعد أن اغتالوا قائدهم (بريغانتى) ، وهكذا قبض غاريبالدى على ضفتى المضيق ، واجتازته قواته الباقية من دون مشقة وانضم إليه الثوار في القرى الواقعة على أطراف أسبرومونته . ولما تقدم سالكا طريق الساحل التحق به آلاف من أهل كلبريه ، وكان لا يزال لدى الحكومة النابولية في الأيالات عشرون ألفا يستطيعون المقاومة بثبات ، متحصنين بالموانع الطبيعية المنيمة التى تعترض الطريق ، بيد أن الذعر انتشر بينهم بسرعة واختل ضبطهم بالدعاية الحرة ودسائس نوزياتته حتى أخذ الجنود والضباط يطلبون تسريحهم والعودة إلى بيوتهم . وفي (كوزتزه) ألقت قوات كالداریلى سلاحها فور مطالبتها بذلك ويبلغ عددها سبعة آلاف ، وفر القائد (فياله) ناجيا بنفسه خشية أن يصيبه ما أصاب بريغانتى ، وكان يسيطر على مضيق (مونته لثونه) وتبلغ قوته اثني عشر ألفا ، ولما رأى أن العصابات الكلبرية قد أحاطت به سلم نفسه بلا مقاومة ، وثارَت أيلة باسيلكانه قبل خمسة عشر يوما من ذلك ، وبهذا تحرر نصف

المملكة من دون أن يطلق رجال غاريبالدى رصاصة منذ استيلائهم على ريجيو . وأخذ غاريبالدى يتقدم فى البلاد على رأس طليعته ، ويكاد يكون بلا حرس بين حماسة الجماهير وهتافاتهم ، وارتبك بلاط آل بوربون ارتباكاً عظيماً ، وولد مجرد اجتياز غاريبالدى للمضيق العربى فى نفس فرنسوا حتى عرض على غاريبالدى فى ٢٧ — آب بأن يعيره خمسة آلاف جندياً لمقاتلة النمساويين أولامورسيبر فيما إذا كف عن القتال . وأخذ رومانو يتآمر جهاراً واجتمع أخيراً بغاريبالدى ودعاه إلى نابولى ، ولما ورد نبأ عصيان الجنود فى القرب من ساليرنه ، وعزم الأسطول على التخلّى عن الخدمة ترك فرنسوا نابولى فى ٦ — أيلول . وفى صباح اليوم التالى وصل غاريبالدى مع بعض رجاله إلى نابولى بقطار السكة الحديدية رغم أن القوات الملكية لا تزال تحتل مواضع قوية من شأنها أن تجعل غاريبالدى والمدينة كلها تحت رحمتها إلا أنه استقل القطار وأتى إلى المدينة دون أن يكثر للخطر المصدق به ، أما الجنود فانسحبوا دون أن يقلقوا راحة الضيوف القادمين ، ويوم دخل غاريبالدى نابولى أرسل كافور إنذاراً إلى انتونللى وطلب فيه أن يسرح المتطوعين الكاثوليك الأجانب لأن وجودهم يهين كرامة الطليان ويهدد سلامة أهل أومبريه ، وبعد مرور يومين أُنذر فانتى قائد القوات المحتشدة على الحدود لامورسيبر بأنه إذا أقدم على أى عمل يمس الحركة القومية أو يعرقل سيرها فإن ذلك سيؤدى

إلى احتلال الأملاك البابوية ، وقد وردت الرسالتان إلى روما في اليوم ذاته فاعتزم الكرادلة القتال ، ولم تكن قوات لامورسيير المختلطة تبلغ العشرين ألفاً أكثرها من المتطوعين الذين يعوزهم النظام ، وكانت القطعات النظامية مستاءة ، فقد اعتزم لامورسيير أن يجمع كل معارضة بأقصى الشدة .

اجتاز المتطوعون القوميون الحدود في اليوم المقرر وكانوا يتقدمون الجيش البيمونتي المتفوق الذي شرع بالحركة في ١٠ ايلول أى قبل أن يصل جواب انتونللى وكانت قوته تبلغ (٣٥٠٠٠) بقيادة فانتى وقد انقسم إلى قسمين الأول بقيادة (ديللا روكا) وتقدم في أومبريه نحو بيروزه والقسم الآخر بقيادة جبالدينى توغل في المارك نحو الكاثوليكاه وهدفه انكونه . وكان لامورسيير قد وزع قواته في أومبريه والمارك متخذاً أنكونه قاعدة لحركاته ، وقد نشبت في ١٨ ايلول معركة فوق روابى (كاستل فيد اردو) ، استطاع فيها جبالدينى أن يسحق بقواته البالغة ثلاثة عشر ألفاً خمسة آلاف من الجنود الباقية لدى لامورسيير الذى هرب مع بعض جماعته إلى انكونه تاركا الجنود البعثرين بلا قائد ، على أن انكونه دافعت عن نفسها ببسالة ضد مدافع جبالدينى وأسطول برسانو واستسلمت في ٢٤ ايلول ، وكانت ارنال ديللا روكا قد اقتربت من روما حتى وصلت إلى موقع يبعد نحو مسيرة ثلاث ساعات ، وعلى الرغم من وجود الحامية الإفرنسية في روما فإن المدينة كانت تنتظر دخول البيمونيين

بفارغ الصبر وقد أعد كل بيت العلم المثلث الألوان ليحيى به الملك
فيكتور عمانوئيل ، وكان البابا بنوى الهروب لولا المشقة العظيمة
التي لقيها (جرامون) في رده .

وبأخذال لامورسيبر نستطيع أن نقول إن الوحدة الإيطالية قد تمت
وهي تكاد تتم ، فما عدا فينيسيه وطراتينا في الشمال وروما
وممتلكات البابا في الساحل حيث لا تزال القطعات الفرنسية
تحتلها بين (كابوليه وجايته) ، فقد تحررت جميع إيطاليا بيد أن
الخطر أخذ الآن يهدد إيطاليا بانشقاق القوميين ، فغاريبالدى يسعى
الظن بكافور وأخذ هذا الظن يتزايد بتأثير الحاشية التي تحيط
به ولا سيما بعد أن بلغه خبر مكذوب يقول بأن كافور قد تخلى
عن ساردينه لفرنسة لقاء حرية الحركة في إيطاليا ، وقد صمم على
أن لا يضع سيفه في غمده إلا بعد أن يحرر روما واعتزم على أن
يبقى دكتاتوراً في صقلية و نابولى مادامت المهمة التي أخذها على
عاتقه لم تنجز . وكان كافور أيضاً بدوره يرتاب في غاريبالدى ويدرك
مقدار الخطر الذي يهدد البلاد من بعض خططه الطائشة ضد روما
وأخذ يخشى أن تعم الفوضى في نابولى كما عمت في صقلية وقد حاول
كافور حتى بعد فشل رجاله في نابولى أن يسبق غاريبالدى بتعيين
برسانو ، أوفيللا مارينا أو كونت سيرا كوزه دكتاتوراً على نابولى
قبل وصول غاريبالدى إليها ، ولما قيل له بأن هذا العمل يؤدي
إلى حرب أهلية تحدى غاريبالدى بأن عمل على تأسيس حكومة

موقتة ، ومع أن اللجان الثورية أقامت حكومة موقتة في نابولي بعد فرار فرنسوا إلا أنه تم الاتفاق على أن تعلن الحكومة الموقتة غاريبالدى دكتاتوراً باسم فكتور عمانوئيل .

ولما وصل غاريبالدى إلى نابولي أقضى أعضاء الحكومة الموقتة عن العمل ووضع الأسطول النابولى تحت أمره الأميرال برسانو وسلم دار الصناعة إلى قوة بيمونتية وأعلن بأن جميع أعمال الحكومة تحمل اسم الملك ، وبعد بضعة أيام أصدر إرادة تقضى بأن يكون الدستور البيمونتي مرعياً وأن تكون القوانين البيمونتيية فى القضاء والجيش نافذة ، وألغى المصالح القنصلية الخاصة بمملكة نابولى كما ألغى جميع الحواجز الجمركية الموجودة بين المملكة وباقى أقسام إيطاليا ولكن الرجال المحيطين به استطاعوا أن يوغروا صدره ضد كافور بحيث أصبحت نابولى عشا لأعداء كافور ، وسارع مازينى بالهجرة إلى نابولى وأصبح برتانى سكرتيراً للدكتور ورسم منهجاً واسعاً معقولا للإصلاحات الاجتماعية وكان يتضمن ادخال طريقة تدريس منتجة مؤثرة وتحويل أرض الكنيسة وأملاك الأشراف إلى خزينة الدولة وتوسيع شبكة السكك الحديدية والخطوط البرقية وتأسيس صناديق للتوفير وتنظيم الأعمال الخيرية وإصلاح مؤسساتها وتعميم الخدمة الصحية وهدم مواخير الرجس فى نابولى . ومما يؤسف له أن يصبح برتانى مرجعاً للحزب الذى يحول دون وجود حكومة مستقرة ، وظل غاريبالدى مضماً على الذهاب إلى روما

وتأخير إعلان ضم نابولي ريثما يتوج فيكتور عمانوئيل في الكايتول ،
وعبثاً حاول برسانو أن يردعه عن ذلك وعبثاً أبان له السفير البريطاني
(أليوت) عواقب تلك الخطة وأخطارها ، ولم يعبأ بكل ذلك بل
إنه كان موقناً بأن الأربعين ألف جندي الذين كانوا لا يزالون
مخلصين لآل بوربون سوف يؤسسون نواة الجيش الإيطالي في
نابولي ، واعتقد بأن الإفرنسيين لن يقاتلوا في سبيل السلطة الزمنية
وأن هتفارية تنتظر الإشارة لتثور وتصبح فينسيه لقمة سائفة
لل قوات المتحدة المؤلفة من جنود جميع أنحاء إيطالية ، ولما رأى
دبريتسي في صقلية لا يزال يسعى لضم الجزيرة أقصاه عن العمل
وعين بدلا عنه (موردينو) وهو من المعارضين لفكرة الانضمام .
وقد نشب الجدل ذاته بمقياس أوسع في نابولي على أن شبه
الجزيرة كلها كانت متشوقة للانضمام كصقلية ، ومع ذلك فقد
نجحت أمور لم تكن تدعوا إلى الارتياح فالشرطة من رجال
الكامورا لم تتمسك بحسن السلوك مدة طويلة ثم إن عناصر
الاضطراب والجنود غير المنظمين والمجرمين الذين أطلق سراحهم
أخذوا يعيشون بالأمن ويثثون الفوضى كما أن الحركة الرجعية أخذت
ترفع رأسها . ومما زاد في فساد الإدارة أن برتاني ملأها بالافاقين
كما فعل كريسي في صقلية وضاعت ثمانون ألف بندقية كانت
قد أرسلت لتجهز الحرس القومي ووقعت بأيدي خطرته ، وحين

تولى كريسبي وزارة الخارجية نشب النزاع في الحكومة بينه وبين أنصار كافور .

على أن الانتصار الباهر الذي أحرزه جنود غاريبالدي حسن هذا الموقف المخزى ، وكان فرنسوا ومعه من أربعين إلى خمسين ألف جندي يربط وراء نهر فولتورنه ، يستند إلى قلعة كابونه بمثابة رأس جسر في الضفة اليسرى من النهر ، والخطر يأتي من تقدم هذا الجيش المتفوق بالعدد وتغلبه على المتطوعين واسترداد نابولي ؛ فلما يحمى غاريبالدي المدينة من هذا الخطر المتوقع نشر قواته البالغ عددها أربعة وعشرين ألفاً ، منها عشرة آلاف من كلبريه ، على خط طوله اثنان وثلاثون كيلو متراً . وفي ١ - تشرين الأول هجمت قوات آل بوربون على طول هذا الخط ، وكان لديها خيالة ومدفعية كافية ، وكانت قوتها تفوق قوة المتطوعين ضعفين . فلم يتمكن (ميلينز) في سانتا ماريا ومديجي في سانت أنجليو من الاحتفاظ بموضعهما إلا بشق الأنفس . وقد احتفظ غاريبالدي باحتياطه إلى الساعة الأخيرة ثم قذف به في المعركة حين خارت قوات الجند النابولي من التعب ، فاستطاع غاريبالدي أن يهزمهم وأن يستولى على مواضعهم وأن يطاردهم حتى جدران قلعة كابونه . وكان بيكسيو مع خمسة آلاف من رجاله يشقت شمل ثمانية آلاف صمدوا له في (مدالوني) ، ثم إن (بروتريني) تغلب بثلاثمائة رجل على أربعة آلاف من الجنود في (كاستل مورونه) . وبلغت خسائر

غاريبالدی فی هذه المعركة (١٨٠٠) نفس ، وبصح القول بأن معركة فولتورنه هذه من ألم انتصارات إيطالية الحديثة ، إذ أظهر فيها المتطوعون من المتانة والحمية ما لا تقل عما أظهره جنود بيمونته النظاميون ، وكان معظم قطمان آل بوربون من المرتزقة السويسريين والنمساويين الذين قاتلوا قتالاً مجيداً . وقد أبرز الرؤساء والرجال مقدرة وشجاعة في الدفاع عن الموضع الضعيفة أمام تفوق عددهم في العدد والعدد .

وظل غاريبالدی رغم هذا النصر الباهر عاجزاً عن إنهاء الحرب في الجنوب . وبينما كان المهرج والمرج سائداً في نابولي أقدم غاريبالدی على المطالبة بإبعاد كافور من رأس الحكومة ، وأجاب على طلبات كافور في ١٥ — أيلول بأنه لن يكون صديقاً للرجل الذي أهان كرامة الأمة وباع أيلة إيطالية ، ثم كتب للملك يطلب إليه إبعاد كافور وفاريني من الحكم عارضاً عليه استعداداه لضم صقلية ونابولي توأماً . تعذر على كافور أن يتخذ التدبير الذي يقهر به الدكتاتور ، وقد لحظ أن عزم غاريبالدی قد اشتد على التقدم نحو روما ، وأوجس خيفة من أن يعلن الدكتاتور الجمهورية ، فدعا البرلمان إلى الاجتماع في ٢ — تشرين الأول ليطلب إليه الصلاحية المطلقة لضم الجنوب إلى المملكة الجديدة حتى إذا ما وافق البرلمان على طلبه هذا يتولى الملك قيادة الجيش في انكونه حالاً يتم حصارها ويتقدم نحو نابولي فإذا خضع غاريبالدی فنعم

العمل ، وإلا فإن أقل ما تعمله الحكومة إرسالها قوة إلى باليرمو
لضم صقليه . صرح كافور قائلا : « إذا كان غاريبا لى يريد القتال
فليفعل ذلك وإنى أشعر بأن لى من القوة ما يكفى لمقاتلته » ،
وحاول أن يكسب صداقه غاريبا لى مرة أخرى بأن أوفد رسانو
وكتب إليه قائلا : « سنذهب يوما ما الى روما لا محالة ، ومن الطيش
التفكير بها ، اذ علينا الآن أن ننجز أمر فنيسيه معا والا نضيع
وقتنا فى الأحلام » . وفى ٤ - تشرين الأول خول المجلس النيابى
الوزارة بما يقارب الإجماع صلاحية جمع أليات الوسط والجنوب على أن
تعلن بالاقتراع العام رضاها عن ذلك ، وبعد يومين من اتخاذ ذلك القرار
وصل الملك إلى انكونه ، ووصل فى الوقت ذاته باللافيجينو يحمل
رفض غاريبا لى ؛ وكان باللافيجينو هذا من الوطنيين المتصلبين .
وكان يكره كافور إلا أنه كان يدرك ما فى سياسة غاريبا لى من طيش
فاعتزم أن يبذل جهده فى مظاهرة أنظار الانضمام ، وكان كريسبى
قد خلف برتانى فى سكرتيرية الدكتاتور فسمى إلى قهر أنصار
الانضمام بالقوة وأوشك أن يقع الاصطدام بين الجيشين القوميين
وشاع أن برتانى أرسل برقية إلى قائد الحرس القومى على الحدود فى
(ابروزه) يبيح له إطلاق النار على قوات الملك ، ولكن الخبر كان
مكذوبا مما حمل غاريبا لى على أن يرسل برقية يطلب بها استقبال
البيموننتيين إخوانا ، ثم كتب الى الملك يحثه على ارسال القوات ، ورأى
باللافيجينو ضرورة الإسراع فى العمل والبت فى الأمور قبل أن

يقوم الدكتاتور بعمل مشؤوم يزج البلاد في حرب أهلية فخرض الوزارة على تقرير إجراء الاقتراع العام ، وقد قررت الوزارة ذلك ظناً منها أن غاريبالدى قد وافق عليه .

وكان غاريبالدى يريد مجيء الملك إلا أنه كان دائماً متمسكاً برأيه في ضرورة الزحف على روما وكان يعلم بأن الإلحاق يقضى على خطته . وترأس كريسي المعارضة واقترح الدعوة إلى عقد مجلس تمثلى بدلاً من إجراء الاقتراع العام ولكن قد يعارض المجلس فكرة الإلحاق وفي هذه الحالة لا يمكن اجتناب الحرب الأهلية ، ولكن غاريبالدى رغم هذا المحذور أيد رأى كريسي فما كان من باللافيجينيو إلا أن هدد بالاستقالة من الوزارة . ومن حسن الحظ أن الشعب أدرك خطورة الموقف فقام أهل نابولى بمظاهرة صاحبة طالبين الانضمام . ورأى غاريبالدى نفسه بأن الشعب كله ضده فمال فوراً إلى رأى باللافيجينيو ووافق على إجراء الاقتراع العام ، وناشد البلاد بأن تنسى وجود الأحزاب السياسية وتتناسى أحقادها الحزبية .

وجرى الاقتراع العام في ٢١ تشرين الأول وأعلنت نتائجه بعد خمسة عشر يوماً ، واقترح لفكرة الانضمام في شبه الجزيرة ، (١٠٠٠ ر ٣١٠) ضد (١٠٠٠ ر ١٠) صوتاً ، واقترح في صقلية (٤٣٢ ر ١٠٠٠) صوتاً ضد (٦٠٠) صوتاً وفي مدينة نابولى ذاتها اقترح (١٠٦ ر ١٠٠٠) للانضمام ضد (٣١) صوتاً فقط ،

ثم جرى الاستفتاء بالاقتراع بعد بضعة أيام في المارك وأمبريه وكان عدد القائلين بالانضمام في الأولى (١٣٣ ر ٠٠٠) ضد (١٢٠٠) وفي الثانية (٩٧ ر ٠٠٠) ضد (٣٨٠) واقترعت آيالة (فيتره) للانضمام على الرغم من أن الجنود الإفرنسيين كانوا يحتلونها ، وعلى أثر ذلك أخذ كافور يدعو الملك للمجلة في المسير لأنه أصبح يخشى هجوماً يباغت به النمسيون لمبارديه ولم يكن يستطيع إرسال الجيش لمقاتلة العدو ومع أن بولونيه وبيازنسه كانتا محصنتين وأن لمبارديه وبيمونتته تنفران للجهاد بكتيهما إلا أن آخر القوات الإفرنسية كان قد ذهب من لمبارديه في حزيران ، وأصبحت القوات الإيطالية الضعيفة معرضة لخطر شديد ، وكان من المحتمل جداً أن تنهز النمسة هذه الفرصة السانحة للهجوم ، وكانت النمسة تريد الحرب من دون ريب . صحيح أنها رفضت التدخل لمصلحة البابا على الرغم من دعوة اتنوللى لها غير أن استيلاء الجند البيمونتي على أومبريه ولد في المحافل السياسية سخطاً عظيماً على بيمونتته ، فاستدعت روسية سفيرها واحتجت بروسية بلهجة شديدة ، حتى الإمبراطور نابليون نفسه تهدد بالمعارضة مع أنه شجع كافور خفية على المضي في عمله واستدعى سفيره من تورينو ، وظلت إنجلترا وحدها موالية إلا أنه لم ينتظر منها بأن تخوض غمار حرب في سبيل إيطاليا وعليه فقط ظهرت إيطاليا وحيدة منعزلة تماماً . وأحس كافور بدنو الخطر شيئاً فشيئاً إذ توقع توجيه الإنذار من النمسة وساوره

القلق الشديد حتى إنه في نهائية تشرين الأول طلب إلى الملك وفانتى العودة توأاً ، ثم حدث بعد ثلاثة أيام ما طمأنه أن إيطاليه أصبحت في سلام .

وكان الإمبراطور نابليون الثالث هو الذى أنقذها في هذه المرة أيضاً إذ استمال قيصر روسيه إلى جانبه وهدد النمسه ، ولعل الوزارة الإنجليزية بذلت هى أيضاً نفوذها في برلين فكف فرنسوا جوزيف عن مشروعه الحربى ، وحين كان الجو متلبداً تقدم الملك نحو الجنوب مع فانتى رئيس أركان حربيه وفارينى حاكم نابولى المقبل واجتاز نهر (ترونتو) ، ثم دخل أرض نابولى في ١٥ تشرين الأول فاستقبله الشعب في كل مكان استقبالا عظيما واعتبره البطل المنقذ حتى أن رجال الإكليروس وعلى رأسهم الأساقفة هرعوا لاستقباله بالمراسيم الدينية . وبينما كان غاريبالدى يجمع حركة بعض القرويين الموالين لآل بوربون الذين ناروا ضد رجاله وفتكوا بالأحرار كان الملك يجتاز على مهل منطقة (ابروزه) سالكا ضفة نهر فولتورنه اليسرى ليستطيع الإحاطة بجيش آل بوربون ، ولما رأى فرنسوا نفسه بين نارين ترك اثني عشر ألفاً من جنده في كابونه وانسحب بالباقي وراء نهر جاريجليانو .

وما علم غاريبالدى باقتراب الملك حتى ذهب لمقابلته وقد اقتنع بأن التغلب على مقاومة آل بوربون لا يمكن أن تتم إلا بمجىء جيش الملك ، وأدرك صعوبة الحركة نحو روما في تلك الآونة وقرر

تأجيلها حتى الربيع وهذا قد يكون قد شعر بأن سياسته قد فشلت ،
ولعل لنصائح أصدقائه من ذوي البصيرة تأثيراً في ذلك .

وتمت المقابلة المشهورة بين الملك والدكتاتور في ٢٦ تشرين
الأول ولكن بعض أفراد الجيش البيمونتي أخذوا يهزأون بجنود
غاريبالدى وقلة ضبطهم وسوء لباسهم ، وراح جنود غاريبالدى
يظنون بأن البيمونتين إنما أتوا ليفتصبوا منهم انتصاراتهم ، وكان
الكثيرون منهم من الجمهوريين والديموقراطيين الذين حز في نفوسهم
أن يروا إيطاليا الجنوبية تترك لحكومة كافور ، بيد أن الجميع
كانوا يتحسسون حساً قومياً صادقاً . وحال وجود العدو على
جاريجليانو دون انفجار الغضب ثم حوصرت مدينة كابونه وسرعان
ما سقطت ، ثم تقدمت على أثر ذلك قوات ييمونته الرئيسية لمهاجمة
جند آل بوربون في مواضعهم الحصينة على نهر جاريجليانو ، وقد
استطاعت أن تحتاز النهر وأن تضطر العدو إلى الانسحاب إلى قلعة
(جاتيه) . وفي ٥ كانون الأول بدأ الحصار ، واجتاز الملك نابولى
على المركبة وبجانبه غاريبالدى وكانت الجماهير تستقبلهما تحت المطر
استقبالا عظيما ولعل التصفيق لغاريبالدى كان أشد حرارة ثم حنق
غاريبالدى لأسباب منها تعيين فارينى صديق كافور الأمين حاكما
على نابولى ومنها أنه يوم دخول الملك نابولى طلب أوسمة للقيادة ورتباً
لجميع ضباطه في الجيش البيمونتي بعد أن عرض نتائج الاقتراع
العام وتخلّى عن عنوانه الدكتاتور فلم يجبه الملك إلى طلبه فوراً

وأجاب بما لم يرض غاريبالدى فانصرف ، ثم حاول الملك بعد ذلك أن يلاطفه إلا أن غاريبالدى رفض هدايا الملك وطلب إليه حمايته للمتطوعين ومنحه عنوان نائب صقليه مدة سنة فوافق الملك على أن يبقى المتطوعون فى مناصبهم الحالية إلا أنه رفض كل امتياز يتعلق بالنيابة فأبحر غاريبالدى مع بضعة مئآت من رجاله إلى كابربره وفى جيبه قليل من الدراهم وفى حقيبته قليل من الفاصوليه وذهب إلى مزرعته ، وفى خطابه الذى ودع به المتطوعين ناشد الناس الولاء للملك ودعاهم إلى التمسك بالانسجام والوحدة ، وراح ينتظر حلول الربيع حيث يهرع مليون نفس إلى تقاد السلاح لفتح روما وفتيسيه وضمهما إلى الوطن . وكان فرنسوا قد تحصن فى قلعة جابته مع عشرين ألفاً من الجند ولم يجد له فى محنته صديقاً سوى نابليون الذى عارض فى حصار القلعة من البحر وظل أسطوله يراقب الجانب البحرى ليحول دون الحصار من قبل الأسطول البيمونتي إلا أنه أذعن أخيراً لإلحاح الحكومة الانجليزية وسحب أسطوله . وقد كابدت المدينة أضرار القصف وتفشى فيها مرض التيفوئيد وأخيراً أدرك فرنسوا أنه خسر المعركة فاستسلم فى ١٣ — شباط ١٨٦١ ، ثم استسلمت قلعة مسينة بعد ذلك لشهر واحد وبسقوط قلعة . (سيفيتل كلا ديل ترونتو) ، فى البروزه فى ٢١ — آذار انتهى عهد آل بوربون .

الفصل الثاني والثلاثون

المملكة الجديدة

١٨٦٠ — ١٨٦١

ها هي إيطاليا تصبح إحدى الدول الكبرى في أوروبا ومع أن النمسة لا تزال تحكم فينيسيه وتراتينه وكان البابا بفضل الحماية الفرنسية يملك روما ولا كوماركة ، فإن المملكة الجديدة تعد واحداً وعشرين مليوناً من النفوس . حقاً لقد أصبحت الوحدة الإيطالية التي كانت أضحوكة السياسيين والتي بشر بها مازيني وبعض المؤمنين ولم يعتبرها أكثر القوميين — حتى في الأوقات الأخيرة — إلا احتمالاً بعيداً — لا أمراً واقعاً ، تلقوه حتى المعارضون بسرور ، وأنسى الزهو القومي الرجعيين وأنصار الحكم الذاتي مثلهم الضيق إذ صاروا يشعرون بأنهم مواطنون يمتنون إلى أمة عظيمة ، وقد تم هذا العمل الجبار في ثمانية عشر شهراً وكانت الأخطار التي حدثت في سنة ١٨٤٨ قد زالت ، ثم انتظر الناس عشر سنوات أخرى وأحسنوا فيها ضبط أنفسهم وعملوا كيف يسيرون إيطاليا كلها . وقد حدث في ساعة ما توتر خطير بيد أن العقل ووطنية جميع الأحزاب صانت غاية الكفاح من المضاحكات الحزبية . وكانت

أهم معضلة جابهها زعماء الأمة ورجال الحكومة تدعيم كيان هذه الأمة الفتية ، وكانت أعظم مصاعب هذه المعضلة قضية الجنوب وانسجامة انسجاماً كلياً مع الشمال . ومما قاله كافور إن إيجاد الانسجام بين الشمال والجنوب أشق من مقاتلة النمسة أو غزو روما . وكانت طريقة الرئاسة على الرغم من أنها ملغاة نظرياً منذ مدة طويلة لا تزال مرعية فعلاً فالقروى كان لا يزال يشتغل بالسخرة ويبيع ما ينتجه لسيده الشريف ، وكان هذا الشريف مولاه ودائه معاً ، يستغله مثلاً يريد ، فضلاً عن أنه كان يقبض على زمام الحكومة المحلية ويستخدمها في مصلحته الخاصة . أما الفتن فكانت من العلل الزمنية في الجنوب ففقراء الأيالات الذين لا يملكون أرضاً ولا يجدون عملاً يتركون مساكنهم بالمئات ويؤلفون العصابات ليكسبوا رزقهم بالنهب والسلب . وكان شعار كافور في سياسة الجنوب « التوحيد للإصلاح والإصلاح لتوطيد الأمور » ، ولعل الفساد العام الذي ظهر في الإدارة بعد سقوط آل بوربون أشد خطراً من انحطاط الأخلاق ، وكان مما أوجب حماسة بعض الأهلين للثورة أملهم في الحصول على الوظائف بعد فوزها ، فأخذ الجمهور يملأ الساحات والدهاليز في كل وزارة ، وكانت جمعية الكامورا الخفية تمتد إلى كل ناحية ، وأخذت جماعات الأفاقين تنساب نحو نابولي وتدعى بأنها من المتطوعين . وأخذ الغاريب الديون الغير الصادقين الذين لم يشعروا بأهمية البارود يطالبون بنصيبهم من الربح ، ويقبضون

الفدية من أنصار آل بوريون ، ويتآمرون لقلب كل وزارة . وامت
الفوضى في الأيالات ، وكان فساد حكومة آل بوريون قد قضى على ثقة
الناس منذ مدة طويلة ، وقد شجعت مقاومة فرنسوا في قلعة جايته
أنصار آل بوريون وأخذوا يرفعون رأسهم ، وكان معظم كبار الملاكين
في أيالات البروزة ولا باسليكانه وكابريه من أنصار الأسرة الساقطة .
أضف إلى هذا أن الاكايروس في المدن والأرياف كانوا في جانب
الملاكين المذكورين وأعداء للآحرار . ومع أن الشقاوة كانت وليدة
أسباب اجتماعية إلا أنها أصبحت أداة سياسية بيد العملاء
المرسلين من جايته وروما لتحريض العصابات على النهب والقتل
في سبيل العرش والكنيسة ؛ فقد كان في نابولي أناس من طراز
الذين رأيناهم في باليرمو ، ومع أن الفساد لم يعم صقلية كما عم في شبه
الجزيرة فكان هؤلاء يتآمرون على الوحدة ويقفون في وجه الانسجام
وفي طليمة هؤلاء الموظفون الذين فقدوا وظائفهم وصنائع كريسبي
ومورديني الذين أصبحوا يخشون أن يفقدوها والمتطوعون الذين
تركهم غاريبالدي في الجزيرة والمصوع والسفاكون الذين قاتلوا
في الثورة ولكنهم حرموا من الغنيمة ، أفلا يجدر في بلد انتشر
فيه الفساد إلى هذا الحد أن يتولى شؤون دكتاتور إلى حين ؟ لقد
كانت أمنية غاريبالدي وجود الدكتاتورية مع أنه كان السبب الأول
لهذه الفوضى ، ومهما يكن الأمر فينبغي الوصول إلى طريقة تساعد
الحاكم على توطيد الأمور من دون أن يخشى تدخل الحكومة

المركية أو مجلس الأمة . وأوصى فاريني بإرسال ريكاسولى مؤثقا إلى صقلية مزوداً بسلطات واسعة ، ومع أن ريكاسولى رفض هذا التكليف فقد أوصى بإقامة دكتاتورية عسكرية ، غير أن كافور كان لا يريد أن يصغى إلى هذه الوصايا ، لأنه كان يخشى أن تمس سمعة البلاد في نظر إنجلترا وأوروبا ويقول : « النضال من مقتضيات الحكومة الدستورية » ، ورفض الملك أيضاً بأن يصغى للوصايا من دون قيد ، وحجته في ذلك أنه لا يريد أن يحنث بيمينه الدستورية . وبعثت الحكومة (مونته زومولو) نائبا للملك في صقلية وأرسلت معه لافارينا وكوردونه ، وكانت إدارة الشرطة في الجزيرة بيد صنائع كريسبي ومورديني ، فتآمرت ضد نائب الملك ووضعت المراقيل في وجه الإدارة الجديدة فاضطر إلى ترك الجزيرة .

أما صعوبة الحكم في نابولى فكانت أشد منها في صقلية . بعثت الحكومة فاريني نائبا للملك في نابولى ، إلا أن هذا أيضاً لم يوفق في مهمته فتآمر ضده أنصار البوربون والغاريبالديون وأنصار موارت ، وكتب بعض الديموقراطيين بعد أن خاب رجائهم إلى كافور يرجونه أن يستدعى فاريني قبل أن تحسر المملكة نابولى . وكان الخطر المباغت يتأتى من الشقاوة التي كانت ترفع رأسها من وقت لآخر وتجد ملجأ لها في الأحرار الكبيرة والجبال الوعرة ، وقد انتشرت في المنطقة الجبلية في جوار (تاجليا كوزو) من أيلة أبروزة طول الشتاء ، وكان يقويها أنصار البابا الذين

يخزنون السلاح في الأديرة المجاورة ويجهزون بها رجال يستقدمونهم من روما لتأليف العصابات مما أدى إلى اشتداد حقد الوطنيين على البابا الذي يهب الأشقياء حمايته . وكان فرنسوا في روما يدبر الدسائس بنشاط فتآمر مع المجرمين السابقين واستخدمهم في النهب والقتل ، وكان على اتصال باللجان المنبثة في جميع أنحاء الجنوب ، أما الاكايروس الذي زاد غضبه بسبب الإصلاحات الاكايروكية الحديثة فأخذ يعمل في شوق لإلحاق الضرر بالحكومة الإيطالية أو إسقاطها ، وأخذ الجنود المهابون ينخرطون في سلك العصابات لسكيا يعودوا إلى وحداتهم .

ولم تكن قضية نابولي سوى أخطر مظهر لمعضلة تناولت جميع الدول الملحقة ببيمونتته ، فمع زعامة بيمونتته قد قبلها بصدق وإخلاص أغلب القوميين فإن الحركة القومية في بيمونتته أصبحت تحت تأثير فكرتين مختلفتين أشد الاختلاف : الفكرة الأولى ويعتقها الرجال القدماء المحدودو الفكر والنافذون في الإدارة والجيش وهي تقول بأن تحكم إيطالية وتدار من قبل البيمونتين وهي تنفر من كل دعوة لنقل العاصمة من تورينو ، وكانت ترضى فكرة وجود إيطالية الكبرى آملة أن تسيطر قوانين بيمونتته وآراؤها على جميع الآليات الملحقة ؛ أما الفكرة الثانية فيعتقدونها الفريق الواسع النظر من أركان الجمعية القومية والذي يترأسه كافور . فهذا الفريق كان يدرك بأن دولة صغيرة ذات أربعة ملايين من

النفوس لا تستطيع أن تتحكم وأن تستأثر في مملكة يبلغ نفوسها أكثر من عشرين مليوناً ، فما على بيمونته إلا أن تندمج في إيطاليا على كل حال ، ولم تكن قوانين بيمونته تضاهي قوانين لبارديه وطوسكانه وبارمه ، و نابولي في كثير من النقاط ، فلا يمكن إدخال نظام بلدياتها من دون استشارة كثير من الحق مع أن الأمل في نجاحها ضعيف في مناطق طوسكانه ولبارديه التي كانت تتباهى بتقاليد حياتها البلدية القديمة المديدة العمر ، فضلاً عن أن مدينة تورينو واقعة في طرف إيطاليا ، ليس لها تذكارات تاريخية وفنية ولا يمكن أن تكون عاصمة دائمية لشبه الجزيرة ، وكانت ميلانو وفلورنسه و نابولي وباليرمو تتمسك بشرف قاعدتها وتتمسك من فكرة التخلي عن مقامها لأية مدينة أخرى سوى روما ، وأخذ بعض المستأثرين بيمونته زاعماً بأنها احتكرت مبادئ الحكومة وقدمت الموظفين البيمونتيين في المناصب الفنية ووجهت التجارة والصناعة نحو قاعدة الحكومة وأهملت شؤون الدول الأخرى .

وقد قربت هذه الجوادث وتلك المخاوف بين ريكاسولي وكريسي مع أنهما كانا يحملان زعمين مختلفتين ، وساقتهما إلى معارضة الفكرة البيموننتية ، وقد أعلن (بيسولي) في كلمات مبالغ فيها أن الإدارة البوروقراطية في تورينو أكبر عدو لإيطاليا .

وكان ريكاسولي قد شن حرباً شعواء على فكرة إدخال القوانين البيموننتية في طوسكانه وطالب بإدارة شبه مستقلة لدولته . وكان

كافور يؤمن كل الإيمان باللامركزية وعين في شهر تموز لجنة لوضع مشروع حكومة محلية ، وقد شرح فاريني بصفته وزيرا للداخلية أمام تلك اللجنة الاقتراحات التي ربما أوحى إليه بها كافور ، وتتلخص زبدة مشروع فاريني بتأسيس دوائر محلية كبرى تدعى بالمناطق تكون واسطة بين الأيالات والدولة ، وتكون في مراكز الحياة الإيطالية الطبيعية ، على أن لا تنطبق حدودها بأى صورة كانت على حدود الدول القديمة خشية تشجيع نزعة الحكم الذاتى فهى والحالة هذه عبارة عن وحدات إدارة ليس لها مجالس منتخبة ، وكان فاريني يستهدف بمشروعه هذا أن تستند هذه الوحدات كما فى السابق إلى مجالس الأيالات التى تسيطر على الطرق والأنهار والصحة العامة والتعليم الثانوى والصناعى والمؤسسات الخيرية المهمة . أما الذين كانوا يرون بأن عمل الدولة يجب أن يكون نافذا واسعا فكانوا يطالبون بمركزية أكثر سعة . ومنهم من يرغبون فى تمشية الأمور ويعارضون مشروع المناطق ويرون أن من شأنه أن يقيّد نشاط الحكومة المركزية وتدخلها . وفى الحقيقة أن البون الشاسع بين الشمال والجنوب كان يتطلب معالجة الأمور فى الجنوب بتدابير خاصة . وفى صقلية قبلت اللجنة التى عينها غاريبالدى فى آخر عهد دكتاتوريته بأن تمنح سلطات نائب الملك لنائب كل منطقة مما ينافى حقوق السلطة الاجرائية المركزية . أما فى القارة فقد ألفت المنافع بين الاتحاديين والجمهوريين والبوربونيين فى نابولى

وجعلت منهم عصابة تصر على الاحتفاظ بالمؤسسات القديمة واتخاذ نابولي عاصمة . واشتدت بعد ذلك حركة قوية تدعو الى مضاعفة أهمية المناطق (ليس لتقليدها أهم سلطات الأيالة فحسب) بل يجعل المالية والإدارة فيها شبه مستقلة عن البرلمان والحكومة المركزية . وأنيط بمنجيتي وزير الداخلية بعد تعيين فاريني لنابولي أن يضع مشروعاً جديداً ، وكانت اقتراحاته على العموم تطابق في خطوطها العامة مشروع سلفه ، فاستهدف في مشروعه تحوير الطريقة الأفرنسية بتخليص الناحية أو الأيالة في كل مراقبة مباشرة يقوم بها موظفو الحكومة المركزية ، وينتخب النقيب (العمدة أو الوكيل) من قبل الناحية ، وتصبح المجالس في الأيالات مستقلة عن الوالي ، وتتمتع بصلاحيات أوسع من تلك التي اقترحها فاريني ، فمجلس المنطقة الذي ينتخب من قبل مجالس الأيالات يدير بالاشتراك مع حاكم المنطقة شؤون التعليم العالي بما فيه مراقبة الجامعات والطرق الأميرية وأشغال النافعة الكبيرة ، ويمارس بعض السلطات التشريعية المتعلقة بالزراعة ، ويتمتع بحق اقتراح قوانين جديدة تعرض على البرلمان لتصديقها ، وبهذا يكاد الحاكم أن يكون نائب الملك ، إذ هو الذي يشرف على إدارة الولاية ويمثل الحكومة المركزية في كثير من الأمور . وكان منجيتي يرى أن يجرب طريقة المناطق مدة من الزمن تساعد على الانتقال من الحالة القديمة إلى الحالة الجديدة . أما أنصار الحكم الذاتي فلم يعلقوا أهمية

كبيرة على اقتراحات ترمى إلى تجزئة طوسكانة أو إدخال بارمه ومودينه في أميليه ، ثم وجهت إلى المشروع معارضة وطنية شديدة من قبل الذين كانوا يخشون أن مشروعه المنطقة يجر إلى فكرة الاتحاد ويصبح عثرة في سبيل تقوية المملكة وتوحيدها ، وخشوا كذلك أن يصبح الحكم شبه المستقلين ساعته خطيرين جدا ، مع أن الظروف في ذلك الوقت إنما تتطلب قيام حكومة مركزية متينة . ثم درس كافور الحالة وغير رأيه وعزم على الأخذ بالطريقة المركزية وتأجيل فكرة الحكومة المحلية إلى حين آخر . وعلى الرغم من توسلات ريكاسولى سلبت طوسكانة استقلالها الإدارى في ١٤ شباط وبعد مرور شهر قام بالعمل نفسه في نابولى وصقلية ثم حل وزارته ، وألف وزارة جديدة أدخل فيها أعضاء من ممثلى جميع الدول القديمة ، وقصر سياسته وقتئذ على تأسيس حكومة قومية واحدة قوية تخسر بها ييموته كثيرا مما كانت تتمتع به سابقا إلا أنه يقضى بذلك على آتاهام تورينو بالجنس ويحصل على قرار من البرلمان باتخاذ روما العاصمة في المستقبل .

وأخذ شوق الناس إلى امتلاك روما وفينيسية يزداد لهفة ويهضر حياة الأمة الداخلية في كل لحظة ، وفيما يتعلق بفينيسيه فعلى الرغم من مطالبة غاريبالدى بالشروع بالهجوم في الربيع القادم فإن الناس أدركوا ضرورة الصبر الآن ، وبما أن غاريبالدى كان قد سرح الجيش النابولى وأن ما بق منه ظل على إخلاصه لفرنسا فقد خابت آمال كافور في مضاعفة قوة الجيش الإيطالى بإدماج

القوات البوربونيه فيه ، فصحيح أن الملكة كسبت الأسطول النابولي ، ولكن لم ينخرط في سلك الجيش الوطني غير ثلاثة آلاف ضابط وعدد قليل من الجنود ، ولم يبق في اليد سوى أربعة آلاف من المتطوعين . وأخذ كافور يقول : « نحتاج في سبيل تنظيم الجيش إلى سنتين ، فيجب أن نتمسك بالسلم طيلة ذلك الوقت » ، وقد صمم كافور على أن لا يعيد المعونة الضارة من فرنسه إلا إذا الجأته الظروف إلى ذلك . ومع أن الحرب ضد النمسه من شأنها أن تعجل الاندماج بين الشمال والجنوب باخوة السلاح فإنه ظل يحذر المخاطرة ويسعى لمنع كل حركة اعتداء على فينيسيه من قبل القطعات غير النظامية ، وكان يفضل أن ينال فينيسيه بطريقة المفاوضات السلمية مع النمسه على أخذها بقوة السلاح لأنه كان يأمل بأن المصاعب الداخلية التي تجابهها النمسه وكثرة النفقات التي تتكبدها في سبيل الاحتفاظ بجيش كبير في فينيسيه ونمو الآراء الحرة في المجلس النيابي الجديد في فيينا ؛ كل ذلك قد يؤدي إلى حل سلمى بين النمسه وإيطالياه لتفضية فينيسيه . وقد صدرت رسالة أخرى في باريس في ١٤ كانون الأول توصى ببيع فينيسيه لإيطالياه على أن تشتري النمسه مقابل ذلك إيا التي بوسنه والمهرسك ، ولما فشل الحل السلمى ولاح لكافور أن الحرب آتية عاجلا أو آجلا اختمر في رأسه مشروع الحلف مع بروسية فأوفد الجنرال لامارمورا إلى برلين ليرفع الاقتراحات الملك الجديد وليقنع رجال الدولة البروسية ان الروابط الطبيعية بين إيطالياه وبروسيه تحتم عليهما بأن تصبحا صديقتين .